

تفسیر

سُورَةُ الْحَكِيمِ



- عنوان الكتاب: بذور الرشد، تفسير سورة الرحمن
- اسم المؤلف: د. محمد باباعمي
- الطبعة الأولى: 1440 هـ - 2018 م
- مقاس الكتاب: 125 × 190
- عدد الصفحات: 168
- ردمك: 978-9931-9466-7-0 ISBN
- الإيداع القانوني: السادس الثاني، 2018.

محموظة  
جميع الحقوق

Copyright © 2018 Kitabook



Kitabook.net





تفسير

سُورَةُ الرَّحْمٰنِ

محمد باباعمي



## بنيّة العمل

لا يعنيني في شيءٍ أن أفسّر القرآن الكريم، فقد فسّره علماء كرام؛  
ولكنني أحيا به ومعهم، ثم أتخذُه منطلقاً لفكري، وصبغةً لفعلي...  
في رحلةِ العمر، بلغت الخمسين حِجّةً؛  
وهي مرحلة لا أرجو معها ولا بعدها إلا معية الله **جَلَّ جَلَالُهُ**،  
وصحبة كلامه، وكنف رحمته ورضاه؛  
أسأله سبحانه صلاح أمر أمّتي، وأن يفرج عنها،  
ويظهر دينه على سائر الأديان،  
وأدعوه أن يصحح بكلامه الحكيم انحراف البشرية  
الفكري والثقافي والحضاري،  
وأن يسخرنا في إطار «نموذج الرشد»،  
وبالاستعانة بـ«بذور الرشد»، لهذا السبيل،  
أشهدُ الله أن ليس لي في الدنيا أمنية، إلا أن يجتمع عدد من العلماء،  
فيجتهدون في علوم القرآن والتفسير، وعلوم المعنى والتنزيل؛ بعقل  
جمعيّ، داخل مراكز بحثية دائمة؛ تنفق فيها أموال أثرياء الأمة،  
وتسخر لها سلطة تحميها، وتجند لها سواعد وعقول  
خيرة علماء هذه الأمة...  
لنحقق بذلك نقلة حضارية توحيدية، نبتغي ذخرها عند الله تعالى  
وما بين يدي القارئ الحبيب هو صورة لهذا المعنى،  
وهو ظل لتلك النية، في انتظار تحقيق المطلوب، وبلوغ المرغوب  
اللَّهُمَّ فاشهد، وبلغ المقصود



### فريق العمل

- الأمانة والتنسيق: أ. جابر ناصر بوحجّام
- الإشراف الفني: أ. جابر موسى باباعمي
- التصميم والتنفيذ الفني: أ. ياسين بوشارب
- متابعة النشر والطباعة: أ. محمد الحاج سعيد
- المراجعون: د. طه كوزي
- أ. علي حموده
- أ. جابر ناصر بوحجّام



## مقاصد تفسير الرشد

- تحبيب كلام الله تعالى للناس بعامة، وللناشئة والشباب بخاصة.
- عرض التفسير في صورة غير منقّرة لمن لم يألف مطالعة المجلدات.
- الوصول بكلام الله تعالى في حياتنا اليومية إلى حال التمثّل والتناغم، بعيدا عن حال التكلف والانفصام.
- الخروج من دائرة الاختلاف في الأصول وتخطئة الآخر؛ إلى سعة المعاني المتفق عليها، والتي تمثل أصل الدين ولبه؛ مع اعتبار الأوجه التي تؤشر إلى رحابة الدين، والتي تمثل الفروع، الجائز الاختلاف فيها.
- اعتماد مصادر التفسير كلّها: من سنة نبوية، وآثار عن الصحابة، وأقوال للتابعين، وتفسير من بعدهم عبر القرون؛ بعيدا عن جفاء القطيعة.
- الإسهام في تحذير الناس عن الجرأة على كلام الله، والتقول على الله تعالى بما لم يقل.
- اعتبار اللغة مصدرا أساسا لفهم الآية القرآنية؛ لكنه غير كافٍ لوحده.

- توظيف الجملة وحدة معيارية للفهم بديلا عن النص المسترسل الطويل؛ وذلك استفادة من منهج القرآن الكريم في اتخاذه الآية وحدة معيارية لبنية المعنى.
- استثارة العمل بعد فهم الآية القرآنية، ذلك أنّ الغرض من كلام تعالى هو «الامتثال والتمثل» لا مجرد الحفظ والأداء والفهم.
- الدعوة إلى أعمال العقل الجماعي في إنجاز مشاريع لا حصر لها، من مداخل معرفية متجاوزة للتخصص، في فهم كلام الله تعالى.
- الدفاع عن الفهم المطيافي، الذي أسسنا له منذ عقدين من الزمان «المبني على اعتماد الموشور المعرفي، المكوّن من عقول متباينة، وتخصّصات مختلفة، وحالات ونماذج معرفية متعددة... للوصول إلى فهم ديناميكي حركي للآية القرآنية».
- تحريك مراحل تحويل المعلومة إلى سلوك، من خلال بذور الرشد: السؤال، الافتراض، الرؤية الكونية، القاعدة الكلية، الصورة الإدراكية، مخطط الفعل، الفعل الحضاري.





إيمانه، يأتي العمل الصالح راضياً مرضياً: ﴿رَبِّمُؤْمِنًا صَالِحًا﴾. «سورة الرحمن» ترسم لنا حقيقة علمنا ومعرفتنا، وتضع الخطَّ الفاصل بين القرآن وهو وحيٌّ، والعقل البشري وهو نعمة من الله؛ لتبين أنَّ الله تعالى صاغ المنهج والميزان في صورة «قرآنٍ يُتلى»، قبل أن يخلق الإنسان بعقله وعواطفه ولغته، وجميع ملكاته؛ وعلم هذا الإنسان قرآنه لثلاثين يكون عليه حجة عند الله يوم القيامة: ﴿الرَّحْمَنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝٤﴾.

ثم، حتى ما هو من عالم الشهادة، ومن عالم المحسوس والمحسوب، لا يعلم منه الإنسان إلا النزر اليسير؛ تقول باحثة في مركز رصد الشمس التابع لوكالة "ناسا": «أكثر من مائة عام، ونحن نرصد الشمس يوميًّا؛ واليوم يمكن أن أقول: لا نعرف منها إلا بشرتها وجلدتها وقشرتها السطحية، لا غير؛ وحتى هذه لا نعرفها إلا بالتقريب؛ وما لا يعلمه هذا الإنسان، يبقى غيبًا حتى يُكشف له أو لذريته من بعده.

أمَّا ما وراء أقطار السماوات والأرض، وما يكون من أحوال قيام الساعة؛ ثم ما يميِّز الجنة والنار، وما ينال

= الرسم (برواية حفص)، لإشكال تقني، يستدرك لاحقًا.

مستحقها من المؤمنين والكفار؛ فهذا لا سبيل إلى العقل فيه، ولا كلمة له ينطق بها؛ إلا ما علمه ربه سبحانه، وما عرضه تعالى بالتفصيل الدقيق في الآخرة: من نبات، ومأكل، ومشرب، وزوج، ومتكأ، ورفقة... وغيرها من معلومات ومعارف لا يملك الخيال زمامها، ولا العقل - ولو كان أقدر العقول على الاستنباط - أن يستنتجها؛ فهي متروكة لله تعالى، سلمنا له سبحانه، وصدقنا ما جاء به رسوله الكريم في قرآنه الحكيم؛ ومن ثم بتنا نعرفها ونعلم دقائقها وتفصيلها أكثر من معرفتنا ببيوتنا وأنفسنا وبيوت جيراننا؛ ذلك أن الذي نعرفه في عالم الشهادة عندنا لا يرقى إلى ما نتلقاه من خبر من ﴿عَلِيمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ سبحانه وتعالى.

ولقد آن الأوان للبشرية أن تعيد تعريف العلم والجهل، والمعرفة والجهالة، والحق والباطل، والخير والشر، والحضارة والتخلف... على أساس من التقسيم المعرفي: الغيب والشهادة، ما يُعلم بالوحي وما يدرك بالعقل، ما سبيله السماع وما طريقه النظر؛ وإلا فإنها ستواصل في انحرافها الكوني عن الخط المستقيم، وسترث البشرية، - ولقد ورثت -، علماً بعضه نافع وأغلبه ضار، وإيماناً خفت وانطفأت جذوته منذ حين؛ حتى بات الناس في

﴿صَلِّ مُبِينٍ﴾ .

وسياتي اليوم الذي يُسلم فيه الإنسان قياده لربِّ العزة، وينتظر حسابه باهتا وجلا، ألى الجنة أم إلى النار؟ أمع الأشقياء أم مع السعداء؟ ويومئذ فقط لا يختلف اثنان، ولا يُنكر أحد أن: «كل من عليها فان، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاکرام». فما يجمل منه اليوم إلا أن يصدق بها، بملء فيه: «تبارك اسم ربك ذي الجلال والاکرام». ولئن سأل سائل، ما الاسم الذي تعنيه، وتنسب إليه الجلال والبركة واليمن، فسيكون الجواب سريعا، إنه: ﴿الرَّحْمَنُ﴾ .

❖ الثقب الأسود في العقل البشري، نحو " موسوعة جهلنا " :

يعرّف الثقب الأسود في الفيزياء بأنه «منطقة من الزمكان، تمنع فيها جاذبيته كل شيء من الإفلات بما في ذلك الضوء»، ويسميه البعض: «مقبرة الكون»؛ بحيث إنه «عندما ينتهي عمر نجم من النجوم البالغة الكبر، وينتهي وقوده، ينفجر وينهار على نفسه»، ثم يتحول إلى سحابة، ثم إلى مادة محدودة من المادة المكثفة، فيقبر هنالك. والذي أعنيه في مقالي هذا، هو أن العقل البشري شبيه بـ«الثقب الأسود» من عدة أوجه:

- من حيث إنه لا يُرى بالعين المجردة،
- ولا يُرصد بالآلات والمناظير؛
- وإنما الذي يُرى منه هو المخُّ بمكوناته المادية؛
- والذي يُرصد بالآلات - كذلك - هو الإشاراتُ الكهربائية الناتجة عن تفاعلات خلايا المخُّ، والتي تعبر عن حالة الاستشارة لأجزاء معينة فيه.

والآن، لو حاولنا رصد ما يقع داخل المخ لتتال كلام الله تعالى، وهو مثلاً، يتلو سورة الرحمن؛ فما الذي يمكن أن نعرفه وندركه؟

هل يمكن أن يكون في مخِّ شيءٍ مختلفٍ عما في مخ الذي يقرأ قصيدة شعرية مثلاً، أو الذي يطالع مقالة إعلامية في صحيفة يومية، أو الذي يشاهد مباراة لكرة القدم؟ لا أعلم الجواب، لكنني سأطرح ملاحظاتٍ، وافتراضاتٍ، وأسئلةً، لعلها تقربنا من الظاهرة أكثر، ثم تستشير العلماء المتخصصين مجتمعين للنظر والتفكير بعقل جمعيٍّ، بعد ذلك.

بدايةً؛ لو افترضنا أن تالي سورة الرحمن كان «خاشعاً»، وبلغة علم النفس كان «مرکزاً»، أي لم يكن ذهنه متوجهاً إلى خارج ما يتلو؛ وكان هذا العقل يتأمل في كل كلمة، وآية، ومعنى، ويحاول التفاعل معها، وتأسيس تصورات،

ومدركاته، وقناعاته، ومواقفه... ومن ثمَّ إيمانه من خلالها. أوَّل ما يصدِّم هذا العقل، أنَّ ما «يدركه ويفهمه» فهمًا دقيقًا، من مواضع السورة، أقلُّ بكثير مما لا يدركه ولا يفهمه إلاَّ على وجه التقريب؛ وبالتالي تكون حالُّ عقله كمثل «الثقب الأسود»: جاذبا لكل ما يشكِّل تصورات المتأمل عوض التالي، ومستبدلاً بها تصورات وقناعات جديدة، مؤسَّسة على «الوحي»، عوض التصورات والقناعات المؤسَّسة على «الإلف»، وعلى «النقل»، وعلى «التخمين»... فمثلا، لا يعرف العقل شيئا عن: تعليم الله تعالى القرآن قبل أن يخلق الإنسان، ولا عن كيفية خلقه، ولا عن البيان الذي علَّمه الله تعالى للناس، ولا عن سجود النجم والشجر، ولا عن الميزان الذي وضعه الله تعالى، ولا عن الجانِّ وخلقهم ﴿مِنْ مَّارِجٍ مِّنْ نَّارٍ﴾، ولا عن سؤال أهل السموات والأرض لله تعالى، ولا عن حقيقة ﴿سَنفَعُ لَكُمْ أَيُّهُ الثَّقَلَانِ﴾، ولا عن كيفية هلاك الكون وتحوُّل السماء ﴿وَرَدَّةٌ كَالذِّهَانِ﴾، ولا عن جهنم وحميمها الآن، ولا عن الجنتين ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾، والجنتين «المدهامتان»، ولا عن جميع التفاصيل الواردة في نعيمهما المقيم...

هذه أمثلة لما لا يعلمه الإنسان مما جاء في السورة الكريمة؛ بل حتى الذي يعلمه، أو يعتقد أنه يعلمه؛ مثل

الشمس؛ فهي كما يقول العلماء: لا يعلم منها إلا الظاهر اليسير.

وأما عن سعة الكون، وأقطار السموات والأرض، فحتى بالحسابات دون رصدٍ، لا يقدر الإنسان تصور ذلك البعد العجيب للكون؛ فهو فقط يكتب أرقامًا، ويقترح نظرياتٍ، ويشكل سيناريوهات... وبعد ذلك، يعترف أن الكون في توسع مستمر: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾؛ فأنى للعقل المحدود أن يلحق هذا التوسع الهائل؟

والأرض التي وضعها الله تعالى، ماذا يعرف العقل البشريُّ عن باطنها، علمًا أن نصف قطر الأرض - أي حتى منتهى النواة - يبلغ طوله 6400 كم؛ وأن أعمق حُفرة حفرها الإنسان يبلغ عمقها 12 كلم، في سيبيريا؛ والعلماء لا يستطيعون أن يحفروا عميقًا في الأرض ليحللوا المواد، ولذا يستعينون بالموجات الزلزالية، للتعرف على حقيقة ما هنالك... إذن، فما يعرفونه لا يعدو أن يكون ذرة من فلاة، وقطرة من بحر؛ مما هو مخبأ ومخفي في جوف الأرض. وقُل مثل ذلك عن المحيطات والبحار.

ومن ثمَّ، يستدعي هذا العقل القلب الواعي، ويحرك فيه الخضوعَ لربِّ العزة، ويعترف أن جميع ما جاء في سورة الرحمن، وفي كتاب الله تعالى بالتبع، جميعه حقٌّ وصدقٌ؛

وأنَّ العلوم يجب عليها أن تواصل دأبها، والعقول يجب عليها أن تواصل جِراكها؛ لكن لا بدَّ أن تعترف بالعجز أمام رب الجلال والإكرام:

﴿بُذِّعَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ ...

والمفارقة في عصرنا، هي أن من يرصد الكون والفلك، ويدرس الشمس والقمر، ويملك المخابر والمراصد والأقمار الصناعية الكبرى، لا يؤمن بالله تعالى، ولا يعترف بالقرآن الكريم مصدرا للعلوم؛ أمَّا من يتلو القرآن الكريم، ويؤمن بالله سبحانه، فهو غالبا بعيدٌ عن المستوى العالميِّ الكونيِّ لهذه العلوم؛ وهذا انقسام خطير في تاريخ العلوم عند البشر.

ويسألونني: ما الحلُّ؟

وهل إلى خروج، من هذا المأزق، من سبيل؟  
أقول، والله أعلم: لا أملك الجواب، ولكنني أقترح أن نفكَّ الانقسام الموهوم بين علوم المادة، وعلوم القرآن؛ ونعترف أنه: نَعَمْ في مناهج أخرى، ثمة علومٌ ماديةٌ وأخرى روحيةٌ؛ لكن في كتابنا العزيز، مثلا من خلال سورة الرحمن، لا فرق بين هذا وذاك، وثمة جوازٌ في السورة بين الشمس والقمر، والإيمان والميزان... وإذا لم نفكَّ هذا الاعتراض، سيبقى هؤلاء في جزيرة،

وأولئك في جزيرة، ونمارس حوار الطرشان..  
ومن ثم، أقترح صياغة «موسوعة لما نجهله» في كلام ربنا،  
ونضيفها إلى التفسير، الذي يُعنى بما نعلمه؛ وتتأسس هذه  
الموسوعة من: أسئلة، وافتراضات؛ ولا تحوي تقارير؛  
ومنها ننطلق في البحث، والتنقيب، والتنقيح، والقراءة،  
وإعادة القراءة... إلى أن يتوسع مجال علمنا، لكن في  
ذات الوقت سيتوسّع إدراكنا لمجال جهلنا؛ وذلك هو  
الإيمان والعلم من مقام العجز...  
فهل نحن فاعلون؟...

### التثنية وسورة الرحمن: سؤال من مقام العجز:

التثنية في سورة الرحمن لا يزال يشكّل لغزا معرفيًا،  
وقد ورد في قوله تعالى:

- ﴿فِي أَيِّ آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾،
- ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾،
- ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾،
- ﴿سَنْفِرُكُمْ أَيُّهُ الثَّقَلَانِ﴾،
- ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾،
- ﴿فِيهَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾،
- ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّاتٍ﴾... إلخ.

ونقرأ ذات المعاني في سور أخرى، بصيغة المفرد أو الجمع؛ وما من شك أن ثمة حكمة لم ندركها، وهي في حاجة إلى البحث والنظر.

والحق أن العجز عن إدراك السر من التثنية في هذه السورة العظيمة واضح وبيّن، وأنا أتبع كتب التفسير كتاباً كتاباً، وأقرأ للمفسرين الكرام واحداً واحداً؛ ولقد أجد توجيهات لمعنى من معاني المثني في آيات من الآيات الواردة؛ ولكن جميع تلك المعاني لم تشف الغليل، ولم تُجب عن السؤال الجليل: ما سر التثنية في سورة الرحمن؟ أمّا التعليل بضرورة الأسلوب فقط، وبمراعاة الفاصلة ليس إلا؛ فهو تعليل ضعيف؛ ذلك أن القرآن الكريم لا يعرف جدلية الشكل والمحتوى، والأسلوب والموضوع، والصورة والذات؛ فهو وحدة كاملة متكاملة، لا انفصام فيها ولا اهتزاز.

فهلا بحثنا بجديّة، وهلا تناولنا الموضوع من مقام العجز والحاجة إلى الله تعالى أولاً؛ ثم من منصّة الاعتراف بجهود من مضى، لا من مقام الادعاء والوهم، والقطيعة مع ما مضى؟

ذاك ما أرجوه، وعلى الله قصد السبيل.

بين سورة الرحمن والواقعة: قراءة في التفسير، والتناغم، والبيان.

جلستُ طويلاً أستمع إلى تلاوة سورة الواقعة، للقارئ المجوّد الشيخ عبد الباسط عبد الصمد رحمه الله تعالى؛ وكان في ذهني شريط سورة الرحمن، اتخذته موشوراً ومنظاراً للاطلاع على سورة الواقعة؛ فهالني أنّ السورتين تكادان تكونان سورة واحدة: في مستوى اللفظ والمبنى، والموضوع والمعنى، والجرس والإيقاع.

وتكاد إحداهما تفسّر الأخرى كلمةً كلمةً، آيةً آيةً، مشهداً مشهداً. ثم، بعد ذلك اطلعتُ على التفسير الجليل للشيخ وهبة الزحيلي، فوجدته يقول: «كأنّ السورتين لتتلازما وتتحادهما في الموضوع سورةً واحدة».

فإذا ورد ﴿الرَّحْمَنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ وجاء السؤال: وما القرآن؟ كان الجواب: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ﴾.

وإذا قرأ القارئ: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾، وسأل: ما الإنسان؟ جاء الجواب: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ۝٥٨ أَلَمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾.

وإذا جاء الحديث في سورة الرحمن عن المجرمين ومصيرهم؛ وكان السؤال: من هم المجرمون؟ جاء الجواب في الواقعة: إنهم أصحاب الشمال: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾.

ثم إذا سألنا عن أصحاب الجنتين، وعن مصير من خاف

مقام ربه؛ كان الجواب: هم الفئة الأولى من سورة الواقعة،  
 إنهم السابقون وإنهم المقربون: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَئِكَ  
 الْمُقَرَّبُونَ﴾. وهم كذلك الفئة الثانية في أي ﴿أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾.  
 وإذا سئل عن: ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾، جاء الجواب: ﴿خَافِضَةٌ  
 رَافِعَةٌ﴾، أي يرفع أوقاما ويخفض آخرين.

وإذا غصنا في صورة «الالتكاء» بين السورتين، تمكّن  
 أن نجمع ما به تزداد الصورة جمالا وجلالا؛ وكذا عن  
 «الحوار العين»، وعن «مأكل أهل الجنة» و«مشربهم»...  
 وجميع ما يضع اللون الجميل على مشاهد يوم القيامة، في  
 صورة فنية بديعة محببة إلى النفس، لمن آمن بالله تعالى؛  
 وفي صورة مخيفة بغیضة إلى النفس، بالنسبة لمصير من  
 كفر به، وجحد سبحانه.

وكذا، الحديث عما تُنبت الأرض من ثمار وتمر؛ نجد  
 له مزيد توضيح في الواقعة: ﴿أَفْوَيْتُمْ مَا تَحْتُونَ﴾.

ويمكن أن يكون التفسير المتبادل بين السورتين حتى في  
 مستوى اللفظ مع اختلاف في المعنى، فمثلا قوله تعالى:  
 ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾، نقرأ قوله تعالى في الواقعة بالمقابل:  
 ﴿أَفَيْتَا الْحَدِيثَ أَنْتُمْ مُدْهُونٌ﴾ الجذر واحد، وهو الدهن؛ غير أن  
 المعنى مختلف في مستوى البيان.

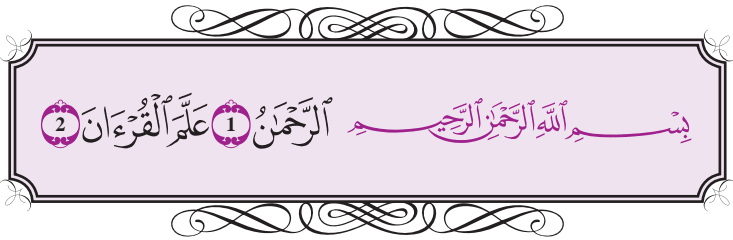
وكذا في مادة «رفع»: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا﴾، وفي الواقعة:

﴿حَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾.

ولو حاولنا تفسير سورة الواقعة، بالعودة إلى سورة الرحمن؛ لكانت النتيجة هي هي؛ روعةً وبلاغةً، وجمالاً وجلالاً، وكرامةً وإعجازاً: حقاً «إنه لقرآن كريم»؛ كيف لا وهو كلام رب العالمين، علّمه خلقه رحمة بهم، سبحانه جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿الرَّحْمَنُ ۝۱ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾.



قال الله تعالى:



### بذور المعنى

❖ ﴿الرَّحْمَنُ﴾: اسمٌ مشتقٌّ من الرحمة، صيغةٌ مبالغة؛ والرحمن من أسماء الله الحسنی، ومن صفاته العُلا؛ من معانيه: المنعم بجلائل نعمه على جميع الخلق، حتى وإن كان المنعم عليه لا يستحقُّها. فهو ﴿الرَّحْمَنُ﴾ برحمةٍ تعمُّ جميع الخلق، والرحيم برحمةٍ خاصَّةٍ بالمؤمنين.

❖ في افتتاح السورة باسم الله تعالى ﴿الرَّحْمَنُ﴾ تشويقٌ للقارئ والسامع؛ وهي السورة الوحيدة في القرآن الكريم، التي افتتحت باسم من أسماء الله تعالى لم يتقدَّمه غيره:

## ﴿الرَّحْمَنُ﴾.

❖ وفي ابتداء السورة بـ ﴿الرَّحْمَنُ﴾ مفردًا، مع تثنية وجمع صابغ لسياق السورة كلها، إلى أن تتوسَّط بإفراد آخر هو ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾، وتختتم بـ ﴿بِزَكَرَاتِكُمْ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾؛ بيان لحقيقة الوجود كلُّه: فالأحدية، والصمدية، وصفات الكمال المطلق، والتفرد بالرحمة، وبالبقاء، وبالجلال، وبالإكرام... كلُّ ذلك لا يليق إلا بالله وحده؛ وجميع خلقه ومخلوقاته، ونعمه وآلائه، تتصف بالجمع والتشتت، والعدَّة والتفتت.

❖ ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾: إعلام من الله تعالى لعباده أنه هو الذي أنعم عليهم بأن علَّمهم القرآن، وهو بهم رحمنٌ؛ فأما من استجاب فهو من أهله وخاصته ﴿فَلَهُ جَزَاءُ الْحَسَنَى﴾؛ وأما من أعرض عنه، فقد توعَّده تعالى بأنَّ له في الدنيا ﴿مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾، ويوم القيامة «نحشره أعمى».

❖ منطق التراتب الزمنيِّ المألوف في أسلوب البشر أن يقال: «الرحمن خلق الإنسان، وعلَّمه القرآن والبيان»؛ وتقديم «علَّم القرآن» على «خلق الانسان»، يحمل دلالات عميقة منها: تشریفُ بني البشر قبل خلقهم، بأن علَّم آدم الأسماء كلها، وعلَّم محمدا ﷺ الوحي، وأودع فيهم ملكة التعلُّم؛ فامتازوا بذلك عن سائر الخلق وعن العالمين.

❖ القرآن الكريم أعظم نعم الله تعالى على خلقه، ولذا استهلّت به السورة في تعداد النعم، قبل غيره من النعم الدنيوية والأخروية.

❖ قد يكون ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ غير مقتصر على الإنسان؛ وإنما يشمل جميع خلق الله تعالى، كما في آية الأمانة ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ﴾. أو في قوله جَلَّ من قائل: ﴿وَلَوْ أَنَّا قُرْءَانًا سِيرَتٍ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمٌ بِهِ الْمَوْتَى﴾. وعن الجن ﴿فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾. فيكون القرآن معلماً لجميع الخلق، لا يخص البشر وحدهم، وفي هذا حكمة الله عظيمة.



## التشغيل والتفعيل

❖ اختتم تعالى سورة القمر بقوله: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُّقَدِّرٍ﴾ بتجلي الجلال والرهبة؛ فإن جاء السؤال: ومن المليك المقتدر؟، زدني علما به أزدد قربا إليه؟ جاء الجواب: ﴿الرَّحْمَنُ﴾ بتجلي الجمال والهيبة.

❖ قاعدة أصولية: «الرحمن: وصفٌ غالبٌ، ثم خرج بكثرة الاستعمال من الوصفية إلى الاسمية»، فكان في الابتداء:

﴿اللَّهُ الرَّحْمَنُ﴾ كما في البسملة، ثم تفرّد بالذكر: ﴿الرَّحْمَنُ﴾. وكذا الحال مع جميع صفات الله تعالى الأخرى، إلا اسمه الأعظم: «الله» فهو علم على الذات العلية، وهو اسم غير مشتق.

ندعو الله تعالى بأحبّ أسمائه إليه، و«الرحمن» و«الرحيم» من أحبّ أسماء الله تعالى إلى الله. لحديث الرّحم: «أنا الرحمن وهي الرّحم، شققت لها اسما من اسمي، من وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته».

﴿قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ هو ردّ على المشركين الذين نسبوا لله سبحانه الشريك باعتبار تعدّد الأسماء؛ فبيّن الله تعالى أنها أسماء من أسمائه الحسنی، والمسمّى واحدٌ أحدٌ لا شريك له.

اشتمال البسملة التي تُقرأ وتكتب بداية كلّ سورة على ثلاثة أسماء لله تعالى «الله، والرحمن، والرحيم»، له أكثر من معنى دال على قدر اسم الله ﴿الرَّحْمَنُ﴾.

أنكر سهيل بن عمرو اسم الله الرحمن في وثيقة صلح الحديبية: «فلما دعا رسول الله ﷺ علياً رضي الله عنه ليكتب الكتاب، فأملى عليه: بسم الله الرحمن الرحيم فقال سهيلٌ: أمّا الرحمن فوالله لا ندرى ما هو؟ ولكن اكتب: باسمك اللهم، فأمر النبي ﷺ بذلك»، ولقد أخبرنا تعالى

أَنَّ المشركين ينكرون اسمه ﴿الرَّحْمَنُ﴾؛ ولذا وجب على  
 المؤمنين حقاً أن يحبوه، ويذكروا الله تبارك وتعالى به.  
 اسم ﴿الرَّحْمَنُ﴾ مختصُّ بالله تعالى لا يعرف أحدٌ تسمَّى به ❖  
 معرِّفاً كان أو نكرة «رحمن»، وإنما الاسم في السنَّة النبوية  
 هو «عبد الرحمن»؛ أمَّا «رحيم» فثمة من يتسمَّى به.  
 رحمة الله تعالى سبقت غضبه، وفي الحديث الشريف: «لَمَّا  
 خلق الله الخلق كتب في كتابٍ كتبه، وهو موضوع تحت  
 العرش: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي».



## من الفكر إلى الفعل

قدم الله تعالى «علم القرآن» على «خلق الإنسان» ليرشدنا إلى أهمية العلم قبل الإقدام على العمل؛ فهو سبحانه قبل أن يخلق الإنسان صاغ له منهج حياته. ثم أرسله ليعمل بمقتضاه.

شتان بين علم نزل من السماء وعلم ولد في الأرض؛ فالوحي والقرآن الكريم هو من المقام الأرفع، وما سواه من العلم هو من الصنف الآخر؛ فإن هو استند إليه كان خيرا لصاحبه وللناس، وإن هو تنكر له كان وبالا على صاحبه وعلى العالمين.

لا يصيب الإنسان عطب إلا إذا تنكر لمنهج ربه الخالق له سبحانه: القرآن.

القرآن يفتح للإنسان آفاق المعرفة والسمو الفكري نحو عوالم جديدة، غير التي ألفها في حياته الطبيعية البدائية الأولى.

شفاء القلوب بالصفاء من الذنوب، والقرآن صيدلية هذا الشفاء.

قال الله تعالى:

خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝ ٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝ ٤

### بذور المعنى

- ❖ ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴾: فهو مفتقرٌ إلى الله سبحانه في وجوده، وفي دوام حاله، وفي مصيره؛ وهذه المراحل جميعها عالجتها سورة الرحمن ببيان.
- ❖ ﴿ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾: هو القدرةُ على التعبيرِ عمَّا في النفس بأسلوبٍ واضح يفهمه المخاطب، وهو الكلام الكاشف عمَّا في الضمير بأسلوبٍ مفهوم وفضيح؛ ووعاءُ البيان اللغَةُ التي علَّمها الله تعالى آدم عليه السلام.

❖ وإذا أريد بالبيان القرآن؛ كان المعنى: الرحمن علم الإنسان القرآنَ وحياً، ثم خلق هذا الإنسان وركب فيه ملكات التعلم الكسبي ومن أبرزها اللغة؛ ثم حمّله على تعلم القرآن (البيان) بالتعلم والمجاهدة، والحفظ والفهم، والقراءة والتدبر. البيان كذلك من معانيه «الأدلة الموصلة إلى العلم» أي «منطق الفكرة» لا مجرد لغتها وألفاظها؛ بل إنّ «منطق العمل» كذلك من أبلغ أشكال البيان؛ يقول مالك بن نبي في «مشكلة الثقافة»: «إنّ الذي ينقص المسلم ليس منطق الفكرة، ولكن منطق العمل والحركة؛ وهو لا يفكر ليعمل بل ليقول كلاماً مجرداً».

❖ النطق، والعقل، واللغة، والإفصاح، والتعبير، والفهم، والبيان، والبلاغة... من أعظم الآيات؛ غير أنّ إلفنا بها بلدنا، وأنسانا التفكر في جلال مصدرها، وفي عظمة واهبها. والله تعالى يمتنّ على الإنسان ببيان أنه ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾؛ ولولا علمنا بالبيان لما فهمنا هذا البيان.

❖ نحن مع سورة كلّها تذكير بالنعمة، ونهي عن كفرانها، ومن أعظم النعمة أنه تعالى لم يخلقنا ويتركنا هملاً

لا منهج لنا ولا نظام، لا لغة لنا ولا بيان؛ وإنما رحمنا بالرعاية والعناية، وباللغة والبيان.

❖ يقول الرسول ﷺ: «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لِسِحْرًا»، وهو توجيهٌ للناس أن يلزموا البيان، ويلتزموا الحكمة في كلامهم وخطابهم، ويجتنبوا أشكال التعكير والتنطع، وكل ما من شأنه أن يفسد معنى التواصل بين اثنين. ولذا ذمَّ الله تعالى مَنْ ينشأ في الحلية والدلال ﴿وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾، ومدح سبحانه كتابه العزيز بوصفه أنه «كِتَابٌ مُبِينٌ».

❖ قاعدة كلية: " إذا لم يكن خَلْقُ الإنسان مصحوبا بالهداية، كان هذا الخلق وبالأعلى عليه " ولذا سبق ذكر الهداية بـ ﴿الرَّحْمَنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾، ثم لحق خلق الإنسان المرهون بتلك الهداية: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾.



## التشغيل والتفعيل

❖ تعلم اللغة العربية الفصيحة أساسٌ وشرطٌ حدِّيٌّ لتعلم القرآن الكريم؛ ولذا تعمد المؤسسات المعرفية العالمية إلى إفساد لغة الشباب المسلم ولا شك أن علاقتهم بالقرآن الكريم ستفتر بالتبع، فهم إذا

لم يتذوّقوه أعرضوا عنه. ومثال ذلك «ويكيبيديا» بإدراجها للغات المحلية: «اللغة المصرية»، «اللغة السورية»... إلخ. وبالمقابل أخفقنا نحن المسلمين اليوم في إعداد مشاريع لغوية تجمع بين الذوق والفعالية، وبين الأصالة والمعاصرة.

❖ «النزعة الإنسانية العلمانية» تؤمن أنّ الجنس البشري إنما هو جزء من «الطبيعة الأزلية غير المخلوقة»؛ والإنسان في هذا المذهب يقوم «بإصلاح ذاته» دون مساعدة من الله ولا حاجة إليه. وقد نشأت هذه النزعة الإلحادية من «حركة التنوير» في القرن الثامن عشر، و«حركة التفكير الحر» في القرن التاسع عشر، ثم قامت «الهيومانية» التي تدعي أنها إنسانية بمحاولة لتصحيح المسار فكان الفساد أفضح من ذي قبل. وهي بذلك تنفي أن يكون الله هو الذي «خلق الانسان». وليس لها أيّ جواب على سؤال: من خلق الإنسان إذن؟

❖ السؤال المنهجي: هل المعرفة سابقة على الوجود، أم أنّ الوجود سابق على المعرفة؟ يجد له أمانة من جواب في افتتاح سورة الرحمن، حيث: ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ هي معرفة، سابق على: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾،

وهو وجودٌ.

❖ «كون اللفظ علامةً على المعنى، بناءً على السياق، حتى وإن اختلف» هو الفرق بين كلمات تصدر من آلة، وكلماتٍ تصدر من إنسان، فلا يمكن لجهاز الكمبيوتر مهما كان متطوراً أن يربط بين لفظة ومعناها أو أن يضيف جديداً إلا إذا استند إلى عقل إنسان، في حين أن صبياً في الثالثة من العمر له ملكة صياغة اللفظ وتوليد المعنى.

❖ تشوّه لغة التواصل بين الناس في العالم الإسلامي، في عصرنا، هو من أسوء المحن؛ فثمة خلطٌ بين اللغات، واستعمال للدارجة المكسورة في أغلب سياقات الحياة؛ واعتماد لغات هجينة صنعها الإعلام بعنايةٍ قصد بلبلة الألسن، وإفساد المجتمع. وهي ربما مشكلة كونية تضررت منها كل اللغات بما فيها اللغة العربية فانسحب اللسان المبين لصالح اللغة اليابسة الجافة: اللغة الإلكترونية الرقمية نموذجاً أو ما يسمى حالياً بلغة: ( **Lingue du Texto**): فمثلاً: هذا الرمز الكئيب (F2f) ينوب عن الجملة الطويلة جداً والمرهقة لأنامل الشباب الفرنسي المسكين ( **face à face** )،...

علم " اللسانيات العصبية " ( **Neurolinguistics** ) ❏  
يحاول فهم وتفسير ظاهرة اللغة عند الإنسان، في  
علاقتها بالمخ. وهو فرع من فروع " اللسانيات  
التطبيقية " الذي « يُعنى بالآليات العصبية في الدماغ  
البشري التي تتحكم في تفهم، وإنتاج، واكتساب  
اللغة»، واللسانيات العصبية تعتمد جملة من العلوم،  
مثل " العلوم العصبية "، و " بحوث الحاسوب " في  
استكشاف ظاهرة اللغة لدى الإنسان، بأساليب  
إمبريقية. وتبقى اللسانيات عمومًا، من أخطر  
المجالات المعرفية الهامة والضرورية؛ لكن برؤية  
كونية توحيدية؛ لا بمناهج مادية حسية، أو عقلية  
مجردة؛ بعيدة عن مشكاة الوحي. والمسؤولية تقع  
في الدرجة الأولى على العالم المسلم. لو أنه  
تفكر في قوله تعالى: ﴿ **خَلَقَ الْإِنْسَانَ** ٣ **عَلَّمَهُ الْبَيَانَ** ﴾،  
واجتهد في فهم ظاهرة البيان، لجاء الخير على  
إثره وابلًا.



## ❖ من الفكر إلى الفعل

- ❖ إفساد اللغة، والعدول عن البيان، كفرانٌ بنعمة من أجل نعم الله تعالى على عباده.
- ❖ لا تتم للناس مدنيةٌ إلاً بوسيلةٍ للتفهم والفهم، وهو البيان.
- ❖ لو نظرنا إلى اعتبار خلق الله تعالى القرآن، والإنسان، والبيان، ثم الكون بكلِّ مكوناته؛ لأسسنا علومنا ومعارفنا على قواعد كونية متينة؛ وهذا لم يتمَّ بعد في جامعاتنا، ومؤسساتنا العلمية بجميع أطوارها.
- ❖ تجربة «قراهام بيل» مع «هيلين كيلر» تلج إلى عمق غياب وسائل التواصل عند الإنسان، ومحاولة البحث عن البدائل للغة والبيان. انظر «قصة حياتي» لكيلر.
- ❖ للقراءة: مقالة «الطحالب الآلهة» محمد باباعمي، كتاب «ذي قربتي».
- ❖ طالع: «تطور علم اللغة منذ 1970» لجرهارد هلبش؛ ترجمة سعيد حسن بحيري؛ ومن المحير أنّ الأسماء الكبرى التي تذكر في هذا السياق جميعها غربية؛ ولا يوجد اسم واحد من المسلمين اكتسب صفة العالمية في هذا المجال؛ والظاهرة مركبة، تحتاج إلى تأمل.

قال الله تعالى:

الشمس والقمر بحسبان 5

### بذور المعنى

❏ ﴿الشمس والقمر بحسبان﴾: الشمس والقمر يجريان بحساب دقيق مقدر من الله تعالى؛ حساب ليس فيه خلل ولا انحراف ﴿لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار﴾. وفي سورة الشمس يقول تعالى: ﴿والشمس وضحاها ١ والقمر إذا نلها﴾.

❏ الشمس بضياؤها، والقمر بنوره، وحركتهما في منازل وأفلاك؛ يشكّلان المرجع والوسيلة لحساب الوقت؛ ويمثلان المعلم الأساس لجملة من العلوم، منها: «علم الفلك»، و«علم التقاويم»، و«علم

التوقيت»، و«الفيزياء الفلكية». قال تعالى: «هو الذي جعل الشمس ضياءً، والقمر نورا، وقدره منازل لتعلموا عددَ السنين والحساب».

❖ لدقة دوران الشمس والقمر جعلهما الله تعالى ميزانا ودليلا لضبط الأوقات، سواءً للبشر أو لسائر المخلوقات من نبات وحيوان: الأعوام، والفصول، والشهور، والأيام، والساعات... وغيرها.

❖ «الشمس» هي «النجم المركزي» في المجموعة الشمسية، وهي من نجوم مجرة «درب التبانة» التي تحوي حوالي 200 مليون مليار نجم. وقطر المجموعة الشمسية يبلغ 8 ساعات ضوئية ويساوي 9 مليار كلم.

❖ «القمر» هو كوكبٌ تابعٌ للأرض، وهو جرمٌ مظلمٌ يعكس ضوءَ الشمس، ويدور حول الأرض كلَّ 27 يوماً وثلاث يوم تقريباً.

❖ الشمس والقمر من أسباب حياة الإنسان، لولاهما لما أمكن أن يعيش؛ وهما تخدمانه لا بسلطة منه عليهما، لكن بتقدير من الله تعالى ونعمة.



❖ في الآية توجيه من الله تعالى إلى الاهتمام بعلوم الفلك، والفضاء، والحساب... وكل ما يخدم معرفة الكون، وتنظيم شؤون الحياة؛ لكن من مدخل مختلف عن المدخل المادي المتنكر للخالق؛ فالذي خلق الشمس والقمر، هو الذي خلق الإنسان، وهو الذي علمه من لدنه علمًا؛ ولا تعارض بين عقيدة وعلم في «الرؤية الكونية القرآنية».

❖ والمفارقة في عصرنا، هي أن من يرصد الكون والفلك، ويدرس الشمس والقمر، ويملك المخابر والمراصد والأقمار الصناعية الكبرى، لا يؤمن بالله تعالى، ولا يعترف بالقرآن الكريم؛ أمّا من يتلو القرآن، ويؤمن بالله سبحانه، فهو غالبًا بعيد عن المستوى العالمي لهذه العلوم؛ وهذا انفصام خطير في تاريخ العلوم عند البشر.

❖ لو غابت الشمس عن الأرض عدة أيام لتحوّلت الأرض إلى كوكب مظلم شديد البرودة، وستختفي عملية «تعاقب الليل والنهار»، وتتوقف عملية «البناء الضوئي»، وتموت على إثر ذلك النباتات،

ثم تموت الحيوانات بسبب موت النباتات؛ وبالتالي يفنى الإنسان من على ظهر الأرض... وغير ذلك من الآثار السلبية المقدرّة، والتي تحملنا على شكر نعمة المنعم سبحانه، الذي ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۖ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾.

❑ لو غاب القمر عن الأرض لوقتٍ طويلٍ، لكان من آثار ذلك أنّ سرعة الأرض ستزداد، وتغيب ظاهرة المدّ والجزر، ويختلط على كثير من الحيوانات شأن حياتها، وتوجُّهها؛ ويحلُّ الظلام الدامس في الجانب الليليّ من الأرض؛ وبما أنّ القمر يعمل كمثبّت لحركة الأرض فإنّه لو غاب لكان دورانها مهتزًّا جدًّا؛ وبالتالي تستحيل الحياة على وجه الأرض.

❑ ورد في الزبور الذي بين أيدينا، ومعناه موافق لما في القرآن الكريم: «يا داوود عجبًا لعبادي، كيف يعصوني وقد نزلت لهم آيات يتعظون بها؛ أفلا ينظرون إلى الشمس والقمر والنجوم؛ كيف جعلتها لهم ليستضيئوا بها، ويهدوا في ظلمات البر والبحر؟».

## من الفكر إلى الفعل

❖ ضعف اهتمام المسلمين اليومَ بعلوم الفلك والفضاء أُوْرثهم الضعف والتبعية الحضارية؛ وهم بذلك قد عَصَوْا أمرًا ربانيًا، وخالفوا سنة كونية.

❖ لا بد من تجاوز المرحلة الشاعرية التي تربطنا بالقمر إلى المرحلة العلمية التي ترشدنا إلى الاستفادة منه ومن الكون كله؛ وهذا لا يعني التنكر للأدب طبعاً.

❖ العرض القرآني للكون لا يقتصر على جانب دون آخر؛ ولكنه شامل لجميع زوايا الموضوع: علمياً، وأدبياً، وفنياً، وفلسفياً... إلخ. وهذا من تمام إعجاز القرآن، بخاصة لو اعتبرنا معرفة الناس بالكون أوان نزول القرآن.

❖ يعمد تاريخ العلم المؤسس على مناهج «المدرسة الوضعية» إلى تغييب دور المسلمين في اكتشاف الكون؛ ولذا وجب إعادة الاهتمام بـ«تاريخ العلوم» في المنظومة المعرفية التوحيدية.

❖ طالع «الكون الأنيق» بقلم برايان غرين... وكتاب «اختلاف المنظر النجمي، السباق إلى قياس الكون» تأليف آلان هيرشفيلد.

❖ وطالع: «النسيء وتقاويم العالم» لنيازي عز الدين.

قال الله تعالى:

وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾

### بذور المعنى

❖ «والنجم والشجر»: النجم له معنيان، وكلاهما ورد عند المفسرين: فإمّا أن يقصدَ به النباتُ الذي لا ساق له، مما ينسبط على الأرض، مثل البقل والقرع؛ أو هو النجم من نجوم السماء المعروفة؛ والذين رجّحوا الشجر المنبسط قالوا: «قابَل الله تعالى النعمتين من السماء: الشمس والقمر، بنعمتين من الأرض: النجم والشجر».

❖ «يسجدان»: يتوجّهان إلى الله تعالى، ويرتبطان به في خضوع وانقياد؛ وفي كون آيات السماء وآيات

الأرض جميعها تسجد لله الواحد القهار، تناسقُ في الأسلوب مع قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، و﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

❏ فالكون كله متعلق بالله الخالق الرحمن، في تناغمٍ وتناسقٍ بديع؛ ولا شيء من خلقه سبحانه يتكبر عن عبادته؛ إلا الكافر الجاحد، الذي اتبع سبيل الشيطان، فأبى أن يسجد لله الواحد القهار.

❏ لا نعلم صفة سجود الأفلاك والنباتات والحيوانات لله **جَلَّ جَلَالُهُ**؛ ولكننا موقنون أنها «تسجد له»، و«تسبح له»، «ولا تعصيه في أمر»؛ والإنسان - وكذا الجن - يملك القدرة على الطاعة وعلى المعصية بمحض إرادته، وبتمكين الله تعالى له هذا الخيار، تفضيلاً له وابتلاء؛ قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ﴾ ثم أَلْحَقَ بِهِمْ ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ واستثنى الذين يتكبرون فقال: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ أي أبى أن يسجد ويعبد ويحمد.



## التشغيل والتفعيل

❏ من تمام حكمة الله تعالى في النبات أنه يمتصُّ من

المواد ما يحتاج إليه، ويترك ما لا يحتاج إليه؛ ثم تأتي الثمرة حسب ما أودع الله تعالى في ذلك النبات من خصائص ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَحِدٍ وَنُفِضَ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ﴾.

❑ لعل في كون «النجم» نباتا بغير ساق صورة من صور السجود لله تعالى، وأما الشجر الذي هو بساق، فهو بمثابة صورة الركوع والوقوف في الصلاة؛ فتتشكل بذلك بين النجم والشجر صورة الساجد المتدلل ثم القائم الراكع الخاشع؛ تماما مثلما في أوائل سورة يوسف، حين قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾. فالذي رآه نبي الله يوسف هو حركة بين الركوع والسجود، لا مجرد حالة السجود.

❑ هذه الآية الكريمة وغيرها مما اهتمم بالزراعة كان سببا لنشأة وتطور «علم الزراعة» في بلاد الإسلام أوان ازدهارها؛ من ذلك أن الأندلس اشتهرت بأنها رائدة علم الزراعة والبستنة، ومن أشهر العلماء في القرنين الرابع والخامس للهجرة: الطيب ابن الوافد، وابن بصَّال الطُّلَيْطِيُّ، والطغرني الغرناطي، وابن العوام.

## •• من الفكر إلى الفعل

•• حين يسجد العبد يكون قريبا من ربه سبحانه، متناغما مع الكون كله، في حركة بديعة من الخضوع والخشوع لله الواحد القهار.

•• الساجد العابد قريب من الله، قريب من الناس، قريب من الكون؛ حين يموت تبكيه جميع الخلائق.

•• كلما رأى المسلم جنة وزرعا، بخاصة إذا كانت ملكا له، قال مع الرجل المؤمن: ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾.

•• «علم الزراعة» من أوكد العلوم التي وجب على المسلمين أن يهتمُّوا بها، وقد تخلَّفوا فيها عن ركب المدنية في عصرهم الحاضر.

•• طالع كتاب «جوامع علم النجوم وأصول الحركات السماوية» لمحمد بن كثير الفرغاني (247هـ).

•• وكتاب «زهرة البستان ونزهة الأذهان» للطغري الغرناطي (513هـ).



قال الله تعالى:

وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾  
وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾

### بذور المعنى

❏ ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا﴾: رفع السماء حسّيً بأن خلقها الله تعالى في جهة العلو من أرضنا، ومعنويً لما فيها من مصادر الأمر الإلهي، ومن منازل الملائكة، وهي منبع الوحي. ويقابل قوله تعالى ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا﴾ قوله ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا﴾ إشارة إلى المدلول الحسي، ﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ إشارة إلى المدلول المعنوي.

❏ السماء جامعة لما تقدّم من: شمس وقمر ونجوم، وغيرها من المجرات، والكواكب، والتوابع، والثقوب السوداء، والثقوب البيضاء؛ وهو المعروف باسم

- الفلك؛ وهي كل ما سوى الأرض.
- ❖ ﴿الْمِيزَانَ﴾ كلُّ ما يوزن به، وهو عامٌّ، منه ما يوزن به المحسوسُ، ومنه ما يوزن به غير المحسوسِ، وظاهرُ معناه ما يميّز به بين الثمين والرخيص، والحقُّ والباطل، والصدق والكذب، والعدل والظلم، والفضيلة والرذيلة... إضافة إلى ما يوزن به عالم المادة، وما يقيه متوازنا: الحجم، السرعة، الحرارة، العمر، التأثير، التوازن... إلخ. وحين تقوم الساعة تختل هذه الموازين، ويفسد الكون بالتبع.
- ❖ والميزانُ في عرف الناس وفي منظومتهم الوجودية والمعرفية هو: العدل، وهو: الآلة التي يوزن بها الحقُّ والباطل؛ وعند قيام الساعة يزول الفساد الذي أحدثه الإنسان ظلما وعدوانا، ويحلُّ محله ميزان رب العزة، الذي يعيد الأمور إلى نصابها: ﴿وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾، ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ ﴿١١﴾ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ.
- ❖ ﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾: أي أنه سبحانه هو الذي أرسى قواعد العدل والجور؛ ذلك أنَّ البشر حين يكونون هم من يضع الميزان؛ فإنهم يظلمون ويبخسون الآخرين، ويسوقون الخير والنفع لحياضهم.
- ❖ ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾: وجه الجمع بين رفع

السماء ووضع الميزان؛ هو أن الكون مؤسس على نظام دقيق عادل ولذا استقام أمره، وصلح حاله؛ ومن ثمَّ وجب على الإنسان أن يقيم حياته على ميزانٍ من العدل، لا يظلم فيه ولا يجور، حتى يستقيم أمره؛ وإن تجاوز الحدَّ وطغى كان حاله حال الكون حين تقترب الساعة: اضطرابا، وانشقاقا، وانفجارا، واحتراقا.

❖ هل يمكننا اعتبار «الفطرة» ميزانا داخيا يكافئ الميزان الخارجي للكون والأفلاك؛ وأن مخالفة الفطرة وعدم التناغم معها يورث فساد النفس وتورمها؟

❖ ﴿أَلَا تَطَّغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾: إذا كان الميزان هو ميزان الأثقال، فالطغيان فيه هو التطفيف في الكيل، الوارد فيه قوله تعالى: ﴿وَبِلِّ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾.

❖ وإذا كان الميزان لما هو معنوي، فالطغيان فيه هو تجاوز الحدِّ، واجتناب الصواب في التقدير، والظلم والجور، والكفر والفجور... وغيرها.

❖ ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾: أي بالعدل ﴿وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾: أي بالجور، بأن تسببوا الخسارة للطرف المجار عليه لحساب الجائر في الوزن أو الحكم: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾.

ومن أشنع أنواع الخسران ما يقع في القيم، والحق، والفكر، والموقف، والمنهج من انحراف وطغيان.



## التشغيل والتفعيل

❏ الذي يفتح عقله إلى عوالم علوية بروح إيمانية، ينقله فكره إلى عالم الغيب بالضرورة، ثم يرتبط بوثاقٍ من علمٍ وعملٍ بالله تعالى خالق تلك العوالم، والمخبر عن ذلك الغيب. ومشكلة العالم اليوم أن «من يؤمن بالله غائبٌ عن الكون جاهلٌ به، ومن يستكشف الكون ملحدٌ بالله **جَلَّ جَلَالُهُ**، متنكر له»؛ وبذلك «ضاع الحقُّ بين جهلٍ خانع، وإلحادٍ مغرور».

❏ يبلغ قطر الكون المنظور (أي السماء) حوالي 90 مليار سنة ضوئية، وهو رقم تقريبي غير دقيق؛ وإنما تم استنتاجه من خلال قياس عمر الكون مضروباً على سرعة الضوء، ليستنتجوا حجم الكون؛ وما دام الكون في توسع دائم، وبسرعات مختلفة، وهو أحياناً يتوسّع بأسرع من سرعة الضوء؛ فإنَّ «الكون المفترض» غير المعلوم، يفوق بكثير حجم «الكون المنظور» المعلوم استنتاجاً؛ ولا أحد من

البشر يملك القدرة على معرفته، حتى بالنظريات والعمليات العقلية؛ بله أن يرصده، ويصفه؛ ومن باب أولى أن يشاهده ويصل إليه؛ فهذا مستحيل ولا سبيل لإمكانه: ﴿وَالسَّمَاءَ بَيْنَهُمَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾.

❑ جميع الأنظمة والمؤسسات الدولية التي وضع أسسها البشر، بخاصة في القرن العشرين وما بعده، من مثل «الأمم المتحدة»، و«محكمة العدل الدولية»، و«مجلس الأمن»، بل وحتى التي تضع معايير العلوم، والجوائز العلمية، وترسم تاريخ العلوم، وتسجل براءات الاختراع... جميعها طاغية في الميزان، نافعة للطرف القوي على حساب الطرف الضعيف؛ لأنها أساساً مولية ظهرها للعدل الإلهي، معلنة العداة لكل ما صدره الوحي.

❑ لو درسنا مجال «المالية العالمية»، وما يحتوي عليه من خفايا صك النقود، وتصريف العملات، وجدولة الديون... وغيرها؛ فإننا نجدها آلة جائرة ظالمة، لا تلتزم العدل ولا القسط؛ وهي تحمي الغني المتحكّم، على حساب الفقير التابع؛ ولقد وقعت الدول الضعيفة، وعلى رأسها المسلمة، سجيناً بين مخالب وأنياب هذا «التنين المالي العالمي».

❏ الذي نعيشه اليوم هو «خداع خادماً للذات»، والنظام العالمي اليوم يعمل بمنطق خاص «والذي يتم فرضه هو نتيجة قرارات بشرية في مؤسسات بشرية. ولكن القرارات يمكن تعديلها، ويمكن تغيير المؤسسات» حسب مصلحة الأقوى وهواه «وإذا اقتضى الأمر يمكن تفكيكها واستبدالها».

❏ خلافا لمعنى آيات الميزان، ما ورد عن فرعون في قوله: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ وهذا منطق كل فرعون عبر التاريخ، فهو يحمل الميزان بين يديه، ويكيل للناس حسب هواه.



## ٥٠ من الفكر إلى الفعل

٥٠ أيها الإنسان، لن تستقيم حياتك إلا إذا التزمت العدل والقسط، ولم تجر ولم تطغ في الميزان؛ وحقيقة الكون ونظامه خير معلّم لك لو وعيت .

٥١ لا بد أن يكون الميزان دقيقاً، محايداً، لا يحابي أحداً؛ حتى يعتدّ به ويعتبر ﴿ **وَزِنُوا بِالْقِسْطِ إِنْ أُرِيدْتُمْ أَنْ تَرْضَوْا** ﴾ .

٥٢ أراد الله تعالى أن يحفظ لعباده حقوقهم، ولم يفضل أحداً على أحد إلا بالتقوى؛ وهذا من تمام رحمانية الله تعالى: ﴿ **الرَّحْمَنُ** ﴾ .

٥٣ في الحديث الشريف: «إذا أحب الله العبد نادى جبريل: إن الله يحب فلاناً فأحبه، فيحبه جبريل، فينادي جبريل في أهل السماء: إن الله يحب فلاناً فأحبه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض» .

٥٤ للقراءة: مؤلفات نعوم شومسكي: «صناعة الإذعان»، و«قيم مشوهة» وإدوارد سعيد «تغطية الإسلام» .

٥٥ قال رسول الله ﷺ في حديث بديع، جامع بين عظمة الخلق، ونفاذ الحق إلى الأكوان: «الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن ما بين السموات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حبة لك أو عليك، كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها» .

قال الله تعالى:

وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنْامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ  
الْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾

### بذور المعنى

- ❏ ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا﴾: أي خلقها على صورتها اللائقة بكل مقدراتها؛ أو جعلها منخفضة بالنسبة للسماء؛ والعلو والخفض في مستوى الأجرام السماوية نسبي لا مطلق؛ ولذا يُقال مرتفعة أو منخفضة بالنسبة للنقطة المرجعية (الأرض مثلاً).
- ❏ ﴿وَضَعَهَا﴾ تعني كذلك مهّدها، وسخّرها، وسطّحها؛ وجعلها مستقرًا ثابتًا للإنسان.
- ❏ ﴿لِلْأَنْامِ﴾: الأنام الناس، والأنام الجنّ والإنس، والأنام كل ما يدبُّ في الأرض. وهو اسم جمع لا

واحد له في لفظه، وقد سكتت مصادر اللغة عن بيان أصله اللغويّ.

❖ وهذه الآية بمثابة «عقد الملكية» للأرض أنها لجميع الأنام، لا لجنسٍ دون آخر، أو قومٍ دون قوم؛ ولكنها خالصةٌ للصالحين من عباد الله في كلِّ زمانٍ ومكان ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾؛ وحين يتحكّم الفاسدون والمفسدون في خيارات الأرض فذلك وضعٌ غير طبيعيّ، ولقد سماه الله تعالى «تقلّباً» فقال جلّ من قائل: ﴿فَلَا يَعْزُرَكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾.

❖ ﴿فِيهَا فَكْهَةٌ﴾: الفاكهة هي الثمار التي تحملها النباتات كغطاء لبذورها. تتميز عادةً بأنها حلوة أو حامضة الطعم، ومكتنزة بالمياه. وهي مما يتفكّكه به الناس، فهي عنوان للرفاه والتمتّع والغنى؛ أي هي من الكماليّات، وليست من قوام الطعام غالباً. والفاكهة أشكال وأنواع وأذواق لا حصر لها؛ ولكل نوع فوائده الغذائية والصحية والطبية.

❖ ﴿وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾ الأكمام جمع كمّ، والمراد به وعاء التمر وهو الطلع، الذي يتحوّل بعد ذلك بلحاً، ورطباً، وتمراً. وذكر البعض أنّ الأكمام هي السعف، وقال آخرون: هي الليف. وإذا احتّمّل

المعنى كل هذه الأوجه، فلا حَجْر على أن تعنيها الآية كلها.

❖ ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾ والحبُّ من أصول طعام

الناس، وليس من الكماليات كالفاكهة، وهو ما يقتات به كالحنطة والشعير والأرز.

❖ أمّا «العصف» فهو غلاف الحبِّ وقشرته.

❖ و«الريحان» هو النبات الطيب الرائحة، وهو لبُّ

الحبّة؛ والريحان كذلك من أجلّ أنواعه الحبق، ويسمّى «النبات الملكي».

❖ في الآية تكاملٌ بين الطعام، والتفكّه، والرائحة

الطيبة، والمنظر الحسن، والدواء النافع. وهذا قوام الغذاء وكماله، ومتعة الحياة وجمالها.



## التشغيل والتفعيل

❖ الفاكهة، والتمر، والحبُّ، والريحان... هي عناوين

لما في الأرض من خيرات وزروع، سخّرها الله تعالى للإنسان، لتكون له طعاما وغذاء، وفاكهة ودواء؛ غير أنّ من الناس من يأكل نعم الله ويكفر به، يطعم خيراته ويعبد من سواه.

❖ الأرض هي كوكب من كواكب المجموعة الشمسية،

وهي الكوكب الثالث في الترتيب بعد عطارد والزهرة؛

والأرض هو المكان الوحيد المعروف - إلى اليوم - أنه يمكن الحياة فيه؛ وكل المحاولات لاكتشاف أجرام أخرى تحتمل الحياة خارج دائرة الأرض باءت بالفشل. ومن معاني ﴿وَالْأَرْضُ وَضَعَهَا﴾ أي جعلها ملائمة لحياة البشر.

❏ جمعت الآية بين خفض الأرض وتيسير الحياة فيها لبني البشر، والنباتات التي لا تحيا إلا على الماء؛ وقد أثبت العلم أن الحياة ممكنة فقط في الكوكب الذي يتوفر فيه الماء، أما إذا لم يكن ثمة ماء فلا حياة. يقول كارل ساجان: «إن كوكب الأرض هو العالم الوحيد المعروف حتى الآن كماوى للحياة. ولا يوجد أي مكان آخر يمكن أن يهاجر إليه نوعنا في المستقبل القريب. إننا نقدر فحسب على القيام بزيارات، أمّا الاستقرار، فليس بعدد. وعلى أي حال، فكوكب الأرض، سواء رضينا أم لم نرض، هو مقامنا».

❏ امتنَّ الله تعالى على عباده بنعم جليلة من خيرات الأرض؛ وهو أمرٌ منه سبحانه أن يشكروها حقَّ شكرها؛ وذلك بأن يعتنوا بزراعتها، ونفع الخلق بها، وتحسينها، والتصدق منها، وإخراج الزكاة مما وجب الإخراج عليه مثل الحبِّ والتمر.

## ٠٠ من الفكر إلى الفعل

٠٠ من كان مفسداً وهو يدعي الإيمان لم يكن أهلاً لوراثة الأرض، تماماً كمن يدعي الإصلاح فيها وهو جاحدٌ خالقها.

٠٠ «علم البستنة»، هو فرع من فروع «علم الزراعة» الذي يشتمل على زراعة الفواكه وتنسيقها؛ ولقد تأخر فيه المسلمون وتقدم الغربيون، رغم أنهم هم من وضع أسسه في الأندلس. فلنستدرِك إذن. «علم التغذية» يدرس مختلف الخضر والفواكه والنباتات؛ وينصح بفوائدها وطرق الاستفادة منها. وهو علم جليل بديع.

٠٠ مرّ رسول الله ﷺ بجزاة، فقال: «مستريح ومستراح منه»، قالوا: يا رسول الله ما المستريح والمستراح منه؟ قال: «العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله، والعبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد، والشجر والدواب». طالع كتاب: «كوكب الأرض: نقطة زرقاء باهتة، رؤية لمستقبل الإنسان في الفضاء» لكارل ساغان؛ ترجمة د. شهرت العالم. سلسلة عالم المعرفة.



قال الله تعالى:

﴿فَيَأْتِيءَ الْآءَ رَبِّكُمْ تُكْذِبَانِ ۝۱۳﴾

### بذور المعنى

- ❑ ﴿فَيَأْتِيءَ الْآءَ رَبِّكُمْ تُكْذِبَانِ﴾: آلاء الله هي نعمه، وفضله، وإحسانه؛ وهي لا تحصى قدرا ولا عددا، ولا يملك عقل معرفة كنهها وآمادها؛ إلا ما يسره الله تعالى على عقل الإنسان، وأراه علاماته ومظاهره.
- ❑ من أساليب القرآن الكريم في تقرير الحكم الإتيان بأسلوب الاستفهام، فهو يقول لهم: قولوا أنتم، إن كانت لكم عقول تفقهون بها وحين نسمع الآية وجب أن نقول كما تقول الجن حين سماع هذه الآية، مما ورد في الحديث الشريف: «لا بشيء

من نعمتك ربنا نكدب» .

❖ لا يستعمل أسلوب «الاستفهام التقريري» إلا من وثق في الجواب أنه كما يريد. ونظير ذلك: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ﴾ .

❖ والفاء في الآية للتفريع على جميع ما تقدم من النعم والآلاء، وليست متعلقة بالآية السابقة فقط؛ ومما جاء ذكره من الآلاء التي لا يكذب بها إلا جاحد، نعمة: تعليم القرآن، وخلق الإنسان، وتعليمه البيان؛ ونعمة الشمس والقمر، والنجم والشجر؛ ونعمة رفع السماء، ووضع الميزان، والعدل والقسط؛ ونعمة وضع الأرض، والفاكهة والنخل، ونعمة الحبّ والريحان؛ وكلّ نعمة من هذه النعم تنطوي على نعم أخرى لا تحصى، وإنما هذه عناوين للنعم لا جرد لها.

❖ الخطاب بالمشنى في الآية للثقلين «الجن، والإنس»؛ ذلك أنه تعالى خاطبهم بعد ذلك بقوله: ﴿سَنَفَعُكُمْ لَكُمْ أَيْهَ الثَّقَلَانِ﴾، وقال: ﴿يَمَعَشَرِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾، وقال: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوَاظٌ﴾؛ وأدُلّ على ذلك أنه تعالى في الآية الموالية يحكي لنا قصة خلق الإنس وخلق الجن ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ﴾ (١٤) ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَّارٍ﴾ .

❖ قال البعض: الخطابُ للذكر والأنثى، وقال آخرون هو خطابٌ للواحد بصيغة الاثنين؛ ولكن الأصوب - كما ذكر - أنه خطاب للجن والإنس. ومع كل الأوجه فإن ما ذهبنا إليه أعم، إذ يحوي الذكر والأنثى، والمفرد والجمع.



### التشغيل والتفعيل

❖ تكررت هذه الآية في سورة الرحمن واحدا وثلاثين مرة، كما تكرر قوله تعالى في سورة القمر، التي قبلها: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾. ولا معنى للتمحُّل والتكلف في البحث عن معنى الرقم 31؛ لأن ذلك مجرد تخمين لا يضيف إلى العلم خطوة، ولا إلى العمل بكلام الله تعالى شبرا.

❖ من القواعد الكلية في فهم كلام الله تعالى أن «الزيادة في المبنى زيادة في المعنى»؛ فالتكرار في السورة مفيد لمعانٍ جديدة وليدة؛ بل كلُّ مرة يرد فيها ﴿فِي آيٍ آءِ الْآءِ رَبِّكُمَْا تُكذِّبَانِ﴾ تفيد هذه الآلاء معنى جديداً، يحدده السياق: السباق، واللاحق؛ وينفتح حسب سعة إدراك القارئ والسامع، مما لا حصر له ولا حدًا.

يوجد من بين الإنس من جحد المنعم، وتنكر له؛ ولكنهم جميعا يرفلون في النعمة، مؤمنهم وكافرهم، شاكرهم وجاحدهم؛ بل من الكفار من هو أكثر انغماسا في النعم من كثير من المؤمنين؛ ولكنهم مع ذلك يظلمون أنفسهم، ويظلمون الحقيقة.



## ٥٠ من الفكر إلى الفعل

٥٠ تعلمنا السورة أسلوباً تربوياً مؤسساً على التكرار البليغ، ليستوعب المتعلم معنى عميقاً، لا يقدر على استيعابه لو ورد مرّة واحدة؛ ومن مقاصد التكرار عند العرب: الإفهام، والتأكيد، ولفت الانتباه.

٥١ وجب علينا كلما ذكرنا نعمة من نعم الله تعالى أن نخصه بالحمد؛ حتى نكون من الشاكرين، ونقيدها، ونكون أهلاً لها: ﴿وَأِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾.

٥٢ «ربّ، حمدي لك يستوجب حمداً».

٥٣ لا يستطيع العبدُ بلوغ منتهى حمد الله تعالى، وهذا من فضل الله على عباده، لأن الحمد وشكر النعم نعمةٌ جديدة تستحق الحمد والشكر عليها؛ وهكذا إلى ما لا حدّ له، ولا يُبلغ مداه.

٥٤ للقراءة: «معيد النعم ومبيد النقم» للإمام تاج الدين السبكي.



قال الله تعالى:

خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ  
مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَيَأْتِيهِمْ آيَاتُ رَبِّهِمْ كَذِبَانٍ ﴿١٦﴾

### بذور المعنى

❏ ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾: أي خلق جنس الإنسان الخلق الأول، أو المراد بالإنسان آدم عليه السلام؛ والمؤدَّى واحدٌ، أي أنّ نوع الإنسان خلق من تراب، والصلصال مرحلة من مراحل تكوّنه ونشأته؛ وفي مفتح السورة إجمالاً لخلق الإنسان، وهنا تفصيلاً لما خلق منه؛ ثم إضافة طريفة حول خلق الجنّ، وما خلق منه من مادة.

❏ ﴿مِنْ صَلْصَلٍ﴾: من طينٍ يابسٍ لم تصبه النار ولم يطبخ، أو طين مخلوطٍ برملاً. وفي مجمل القرآن

أخبرنا تعالى أَنَّ الإنسانُ خُلِقَ من ماء، ومن تراب، ومن طين، ومن حمأ مسنون، ومن صلصال... كُلُّهَا مراحل، ولا تعارض بين الآيات كما زعم البعض.

❖ ﴿كَالْفَخَّارِ﴾: هو الطين الذي احترق بالنار، وتصنع منه الأواني.

❖ كذا ورد في التفسير أَنَّ الصلصال ما له صلصلة أي صوت، ولم تصبه نار؛ أمَّا الفخار، فهو طين احترق بالنار؛ ويصعب الجمع بين المعنيين، فلو كان على سبيل المراحل لفُهم، لكن جاء على صورة التشبيه؛ ولذا والله أعلم، قد يكون المعنى أَنَّهُ طين بلغ درجة الفخار وهو صلصال، ولكنه لم يحترق بنار، كما في أحوال الصنعة عند الناس؛ ولذا حافظ على اسم الصلصال، ولكنه اكتسب خاصية الفخار. وتبقى المسألة للتحقيق والبحث.

❖ ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَّارٍ﴾: المارج هو اللهب الخالص من النار الذي لا يخالطه دخان، أو اللهب المختلط بسوادٍ. وطبيعة النار أنها تنفذ ولكن الصلصال لا ينفذ؛ ومن هنا جاءت قدرة الجن على النفاذ، وعجز الإنسان عن ذلك.

❖ خلق الله - تعالت قدرته - الإنس من كثافة الطين،

وخلق الجنَّ من شفافية النار؛ وحوّل الطين والذهب مخلوقًا إنسانيًا حيًّا فاعلاً واعيًا، محسًّا مفكّرًا، صاحب إرادة وحرية وكرامة؛ كما حوّل الذهب إلى مخلوق جنّيّ واع مفكّر مريد، وعالمه حافل بالأسرار بالنسبة لنا؛ وهو مسؤول عند الله تعالى في قضايا الإيمان والكفر تماما مثل الإنسان، كما أخبرنا بذلك كلام رب العالمين.

❖ نعمة خلق الإنس وخلق الجن، كلُّ حسب خصائصه، في صنع بديع؛ هي التي يسأل تعالى عنها سؤال تقرير: ﴿فِي أَيِّ آءِ آءٍ رَّبِّكُمْ أَتَكْذِبَانِ﴾ وليس لنا إلا أن نقول، كما علّمنا رسولنا الكريم، مما نقل ﷺ عن إخواننا الجنّ: «لا بشيء من نعمتك ربنا نكذّب».



## التشغيل والتفعيل

❖ الإنسان لا يعرف كيف خلُق، ولا المراحل التي مرَّ بها في أوّل الخلق، إلا ما جاء في القرآن الكريم؛ ومن ثم فإنّ ما ورد في هذا من نظريات، ما هو إلا تخمينٌ لا دليل يسنده؛ وبخاصة ما عرف بـ«نظرية التطور» لداروين، و«نظرية التصميم الذكي» بعدها. أمّا حقيقة الخلق في القرآن الكريم فليس مجرد نظرية، بل هو يقينٌ وحقٌّ من الله الخالق العليم،

لا جدال فيه .

❏ لمعرفة مراحل الخلق يمكن أن نلاحظ مراحل نقيضه أي الموت؛ ذلك أن الهدم يأتي عكس البناء في الترتيب الزمني وفي الخصائص؛ فما بُني أولاً يُهدم آخرًا، وما بني آخرًا يُهدم أولاً. ولذا كانت الروح أول ما يزول عن الإنسان؛ لأنها آخر ما أودع الله تعالى فيه ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوْحِهِ﴾. ثم يتيبس الجسدُ فيشبه الصلصال، ثم تتغير رائحته كالحمأ المسنون، ثم يتبخر الماء، ثم يتحول إلى طين، ثم ينتهي ترابًا، ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾.

❏ إذا كانت علوم الطبيعة قادرة على تحليل مراحل خلق الإنسان، وعلى بيان مكوناته المادية بصورة مقربة ودقيقة جدا؛ فإن العلوم كلها لا تملك معرفة الجان، ولا ممَّ خلقت، ولا تاريخها، ولا حاضرها اليوم، ولا مستقبلها؛ ولا تقدر عقولنا أن تنتقل إلى عالم الجان فتبحث فيه أو تدرسه؛ ولذا يبقى المصدر الوحيد الموثوق عن الجن، وكذا عن الشياطين، وعن الملائكة بالتبع؛ هو القرآن الكريم، والسنة الصحيحة. وفي هذا عبرة لنا، ونعمة من المولى؛ لئلا تتحوَّل هذه العوالم إلى طلاسَم، وإلى أوهام، وسحرٍ.

## ٠٠ من الفكر إلى الفعل

٠٠ التفكير في الخلق، وفي بديع صنع الله تعالى، من أعظم العبادات التي تفرض علينا بناءً تربويًا ينميها في الناشئة: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾.

٠٠ لم يخلقنا الله تعالى عبثًا، ولكن خلقنا لأمر هو الذي فرضه علينا، وهو أن نعبد، ونخلص العبادة له، ولا نعبد أحدا سواه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

٠٠ في الأثر، معناه صحيح وإن كان في الرواية ضعيفا، قال الله تعالى: «إني والإنس والجن في نبأ عظيم، أخلق ويُعبد غيري، أرزق ويُشكر سواي؛ خيري إلى العباد نازل، وشرهم إليّ صاعد، أتودد إليهم بالنعم وأنا الغني عنهم! ويتبغضون إليّ بالمعاصي، وهم أفقر ما يكونون إليّ».

٠٠ للقراءة: «لماذا الدين ضرورة؟» لهوستن سميث، ففيه ردٌّ على العلموية في ادعائها معرفة الخلق الأول للإنسان.



قال الله تعالى:

رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾

فِي آيَةٍ آءِ الْآءِ رَبِّكَ مَا تُكْذِبَانِ ﴿١٨﴾

### بذور المعنى

ورد المشرق والمغرب في القرآن الكريم بالمفرد **﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾**، والمثنى **﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾**، والجمع **﴿رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾**. ولو أخذنا أيّ نقطة من الأرض فلها مشرقٌ ولها مغربٌ وهنا نوظف الأفراد؛ ولها مكان تشرق منه الشمس وتغرب، ومكان يشرق منه القمر ويغرب، وهو من معاني المثنى في هذه الآية؛ وفي كل لحظة من الزمان ثمة مكان تشرق منه الشمس وتغرب، فهذا الجمع، أي «المشارك والمغرب» الزمنية والمكانية، وهي لا تحصى.

❖ ذكر بعضُ المفسِّرين أنَّ المشرقيَّين: مشرق الصيف ومشرق الشتاء، والمغربيين: مغرب الصيف ومغرب الشتاء؛ وبذلك تكتمل الفصول الأربعة، التي تنتظم فيها الأرزاقُ، وينتظم فيها شأنُ النعم التي ذكرت من قبلُ، من نبات الأرض.

❖ بما أنَّ الآيات السابقة عرضت نعمًا حسَّية وأخرى معنوية، فالحسية من مثل «الشمس والقمر، والنجم والشجر، والأرض والسماء...»، والمعنوية من مثل «القرآن، والبيان، والميزان...»؛ فهل في الإمكان اعتبار التثنية في هذا السياق «ربُّ المشرقين وربُّ المغربين» دلالةً على مشرق المحسوسات ومغربها، أي خلقها وزوالها؛ ومشرق المعنويات ومغربها، أي شكرها وكفرها؟ نفترض هذا التوجيه، ونفتح المسألة للبحث.

❖ نعمة المشرق والمغرب مما لا تخطئه العين ولو كان بها عورٌ أو عمى؛ فهي من أظهر النعم وأكثرها وضوحاً لمن يعتبر بآلاء الله ونعمائه، ولا يكفر بالمنعم سبحانه: ﴿فَإِيَّاءِ الْآءِ رَبِّكُمْ أَتَكْذِبُونَ﴾.



## التشغيل والتفعيل

❖ عالمنا اليوم منقسم حضاريًا وتاريخيًا إلى «مشرق

ومغرب»، ولقد ضاع الحق والعدل بينهما، في صراع حميم لا نهاية له؛ والله الحمد والمنة أن ربَّ المشرق هو نفسه ربُّ المغرب، وإلا لفسد أمرُ الدنيا، ﴿وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾؛ ولا أحد من بني البشر يملك قدرة التسلط على المشرق والمغرب في آن واحد؛ وهذا من أعظم دلائل ضعفه وحاجته إلى ربِّ منعم قدير، عليم بصير.

❏ بات اليوم في الإمكان مشاهدة حركة الشمس فوق سطح الأرض، ومعاينة ملامستها للأرض في كل شبر من بحر أو يابسة، وذلك باستعمال الأقمار الصناعية، وهو في متناول أي واحد يتصل بالشبكة العنكبوتية؛ وغريبٌ هو شكل الجرس الأسود الذي يمثل الليل حين نسطح خريطة الأرض، ونشاهد عليها الظلمة والنور؛ ويكون ذلك المشهد بخاصة على متن الطائرة حين تحليقها.

❏ حين ادعى النمرود أنه يحيي ويميت في تحديه لسيدنا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، حَوَّلَ النبي الكريم السؤال إلى تحدٍّ من نوع آخر: ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ ثم كانت النتيجة؛ عجز وانهازم: ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

## من الفكر إلى الفعل

علم الفلك، والدراسات الزمنية، ومعاينة عظيم خلق الله تعالى في الأكوان والأنفس؛ كل ذلك من أكثر العبادات أجرا ومثوبة؛ ومن أقلها حضورا في واقع المسلمين المعرضين عن كتاب ربهم.

أن يعالج كتاب الله تعالى قضايا الفلك بدقة ووضوح، هذا يخالف كل دين محض، مما يتنكر للدنيا لحساب الآخرة.

طالع: «الإسلام بين الشرق والغرب» علي عزت بيجوفيتش.

و«تاريخ ضائع: التراث الخالد لعلماء الإسلام ومفكره وفنانيه» مايكل مورجان.



قال الله تعالى:

مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾  
فَبِأَيِّ آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ ﴿٢١﴾

### بذور المعنى

❖ بعد أن لفت الله تعالى انتباه الثقلين، الجن والإنس، إلى نعمه المعنوية، ثم النعم الكونية، ثم النعم الخلقية، ثم النعم التي في البر؛ تحوّلت الآيات إلى التذكير بالنعم التي في البحار والمحيطات والمياه، وهي جليلة عظيمة؛ وليس كلُّ البشر يعرفها، بخاصّة العرب أوان نزول القرآن، وهم كانوا بعيدين عن البحر غالباً.

❖ ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾: مرج السائل أي خلطه ومزجه، ومرج البحر أرسله؛ أي أنّ الله تعالى جمع بين

البحرين: العذب الفرات، والملح الأجاج؛ لقوله في سورة فاطر: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شْرَابُهُ، وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾.

﴿يَنْهَمَا بَرِّخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾: البرزخ هو الحاجز بين شيئين، والبرزخ كذلك هو الحاجز بين الموت والبعث. والآية تذكّرنا بنعمة أن الماء المالح في البحار والمحيطات، وهو الذي يغطي ثلثي الكرة الأرضية، رغم أنه يتلاقى مع الماء العذب، في الأنهار التي تأتي من المنابع أو من الأمطار؛ إلا أن الله تعالى منع اختلاطهما، ومنع أن يبغى المالح على العذب وأن يمتزجا؛ ولو طغى لما صلح زرع، ولما وجد الناس مياها للشرب وسقي الأنعام والنبات؛ ومن ثم تفسد الحياة كما تفسد باختلال جميع الموازين في كل المجالات.

﴿فِي أَيِّ آءِ آيَةٍ رَّبِّكُمْ أَنْكَرَبَانِ﴾: بأيّ نعمة من نعم الله تعالى يكذب الإنسان: أبنعمة البحار؟ أم بنعمة عدم بغي أحدهما على الآخر؟ أم بنعمة الحياة التي تتوقف على الماء؟



## التشغيل والتفعيل

لا بدّ من ملاحظة «الدفعة الحركية، الجغرافية، الحضارية» للمسلمين، نحو عوالم مائية، من بحار

ومحيطات؛ وهم العرب الذين لم يعرفوا البحر، ولم يألفوه في الجاهلية؛ فجاء الإسلام وحرك فيهم شجاعة، واندفاعا، بهما تم فتح العديد من البلاد التي تقع فيما وراء البحار. فمثلا، حين فتح طارق بن زياد الأندلس، عبر مضيق جبل طارق، كانت تراوده فكرة اقتحام المحيط إلى الجهة الأخرى من العالم.

❏ رغم أن البحر المالح هو الذي يمدُّ الأنهار بالماء، وذلك بتبخُّر المياه، وسقوطها أمطارا، إلا أن الله تعالى شاء أن تنزل من السماء عذبةً صالحَةً للشرب، وبهذا كذلك لم تختلط المياه العذبة بالمياه المالحة؛ فنفي الامتزاج والاختلاط منه ما هو أفقيُّ (البحار، والأنهار)، ومنه ما هو عموديُّ (البحار، والسحب).

❏ تكوّن المياه المالحة ما نسبته 97% من الماء الموجود على سطح الأرض؛ وتتجمع في المحيطات والبحار؛ وهي تغطّي ما يقرب من 70% من سطح الأرض. بينما تبلغ نسبة المياه العذبة في الأرض 3%.

❏ وجود مثل الحاجز بين الماء المالح والماء العذب يمنع منعًا باتا انتشار جزيئات الملح من الماء

المالح إلى الماء العذب، وهو ما يخالف القانون الطبيعي الذي ينصُّ على أنَّ جزيئات المادة في السوائل والغازات تنتشر من الوسط الأكثر تركيزاً إلى الوسط الأقل تركيزاً.

❏ هذا الحاجز ( **interface** ) ليس حداً فاصلاً لا عُرِّض له، بل هو منطقة لها سمك محدّد، يهبط فيها تركيز الملح بشكل تدريجيٍّ من مستواه في جهة الماء المالح إلى مستواه في جهة الماء العذب.

❏ «دورة الماء» ( **the hydrological cycle** ): تعنى بتوصيف الماء من حيث وجوده، وحركته على الأرض: في جوفها، وفوقها. علمًا أنَّ مياه الأرض ذات حركة دائمة لا تتوقف، تتغير أشكالها باستمرار: من سائل إلى بخار، ثم إلى جليد، ومرة أخرى إلى سائل. ولقد ظلت دورة الماء تعمل مليارات السنين، وتعتمد عليها كلُّ الكائنات الحية التي تعيش على الأرض.

❏ «علم المياه» ( **Water Science** ): يعنى بدراسة المياه وتوزيعها فوق الأرض، وصفاتها، وخصائصها الطبيعية والكيميائية، وتفاعلها مع البيئة والكائنات الحية.

### • من الفكر إلى الفعل

• «علم البحار والمحيطات» هو علم سيادي، منح الدول التي تقدمت فيه الحق في الاستيلاء على أجزاء كثيرة من مياه الأرض.

• بات «علم المياه» من أكثر العلوم أهمية، ومن أوكدها وجوباً على الشباب المسلم؛ ذلك أن الثروة الكبرى في العالم مستقبلاً ستكون هي «ثروة المياه». وأن الحروب التي بدأت هي «حروب المياه».

• للقراءة: كتاب «حرب المياه على ضفاف النيل، حلم إسرائيلي يتحقق» تأليف: عمر أحمد فضل الله. و«أزمة المياه في المنطقة العربية: الحقائق والبدائل الممكنة» تأليف: سامر مخيمر، وخالد حجازي.

• «لا بنعمة من نعمك ربنا نكذب».



قال الله تعالى:

يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾

فَبِأَيِّ آيَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾

### بذور المعنى

- ❖ ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّؤْلُؤُ﴾: اللؤلؤُ يسمَّى الدرُّ؛ يتكوّن في الأصداف من رواسب أو جوامد صلبة لماعة مستديرة، في بعض الحيوانات المائية الدنيا من الرخويات، التي تسمّى المحار، وهي ثنائيتة المصراع؛ تعدُّ المصدر التجاريّ الرئيس للؤلؤ.
- ❖ واللؤلؤ في أصل اللغة: المصونُّ في أصدافه مما يغيّره، ومنه قوله تعالى: ﴿اللؤلؤ المكنون﴾.
- ❖ ﴿والمَرْجَانُ﴾: لها عدة معانٍ كلّها تشير إلى المواد

الثمينة والعزيزة والنادرة؛ منها: المادّة التي تشبه الصخر تتكوّن من الهياكل الجيريّة لبعض الحيوانات البحريّة؛ أو جنسٌ حيوانات بحريّة ثوابت من طائفة المرجانيّات لها هيكل وكلسٌ أحمر، يُعدُّ من الأحجار الكريمة؛ أو جنسٌ سمكٍ من الفصيلة الإسبوريّة ورتبة شائكات الزعانف، يُعدُّ من أطيب السمك في البحر المتوسط.

❖ «يُخرج منهما» أي من البحرين العذب والمالح.

يُخرج على البناء للمجهول، ذلك أنّ الذي يخرجهما هو الله **جَلَّ جَلَالُهُ**، ولا ينكر ذلك إلّا جاحدٌ.

❖ ولقد كان الإشكال عند القدامى من المفسّرين أنّ

اللؤلؤ والمرجان لا يكونان إلّا في الماء المالح؛ غير أنّه في عصرنا، مع تطور علم البحار والمياه، ومن الناحية العلمية والصناعية، يصنّف اللؤلؤ والمرجان إلى نوعين: ما يصدر من ماء مالح، وما يأتي من ماء عذب. وفي الآية إعجاز باعتبار معارف القرن الذي نزلت فيه.

❖ في هذه الآية ذكّر تعالى ﴿اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ وفي

آيات الجنة يصف الله سبحانه حور العين بقوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾، ولقد اتفقت الآيتان في لفظة

«المرجان» وتباينت في «اللؤلؤ» و«الياقوت»؛ فما هي الحكمة؟ سؤال للبحث.

❖ ﴿فَبِأَيِّ آءِآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾: نعمة اللؤلؤ والمرجان مما يتَّجر به، ويتَّخذ زينةً، ويُستعمل للمداواة؛ فاللؤلؤ مثلاً يُفيد في علاج نوبات الحمى والزكام؛ والمرجان يعالج به فقر الدم وأمراض الدورة الدموية. إضافة إلى الزينة والثروة. فبأي نعمة من نعم الله تعالى تكذِّبان؟



## التشغيل والتفعيل

❖ اللؤلؤ الكبير المُتقن الشَّكل من أثمان الأحجار الكريمة من حيث القيمة؛ ويوجد لؤلؤ طبيعي ولؤلؤ آخر مستنبتٌ، ولا يميز عن غيره إلا بتجارب دقيقة.

❖ ينتج كلُّ محصول العالم من لآلئ الماء المالح (المزروعة) في اليابان؛ واليابانيون أتقنوا أساليب زراعة لآلئ الماء المالح؛ وصنعوا بالتالي ثروات كبيرة تعوّض عن غياب الثروات الطبيعية عندهم. أمَّا زراعة لآلئ الماء العذب فيسيطر عليها الصينيون.

❖ توجيه الآية إلى النظر في دقيق إبداع الله تعالى في اللؤلؤ والمرجان، هي دعوة حضارية للاهتمام به زراعةً، واستنباتاً، واكتشافاً، وصناعةً، وتحويلاً؛ وتفريطُ المسلمين في هذا الشأن إضافة إلى كونه تخلُّفاً حضارياً، هو من نوع المعاصي التي تسَّجل على المسلمين في عصرنا.

❖ يقول الرئيس علي عزت بيجوفيتش، في كتابه «الإسلام بين الشرق والغرب»: «العلم يسعى إلى اكتشاف القوانين واستخدامها، أمّا العمل الفنيُّ، فإنه يعكس النظام الكونيِّ دون أن يستفسر عنه» ثم يضيف: «العلم دقيقٌ، أما الفنُّ فصادق».



## ❦ من الفكر إلى الفعل

❦ ليس الجمال، والاهتمام بالجمال، من مكملات الحضارة، ولكنه من أصول الحضارة؛ ودعوة القرآن الكريم إلى الاعتناء بكل ما يزين ويجمل، لها أكثر من مغزى.

❦ لا بد من توجيه عددٍ من الشباب المسلم إلى الاعتناء بصناعة الأحجار الكريمة، ذلك أن القيمة الخام زهيدةً بالنسبة للقيمة التي تكون بعد تحويله وصناعته. فنعمة المعدن لا تكتمل إلاً بنعمة المعرفة، والعلم، والصناعة.

❦ العناصر الأربعة: المبدأ الأخلاقي، والمبدأ الجمالي، والمنطق العملي، ثم التقنية. هي العناصر التي تتكون فيها ثقافة المجتمع، حين يولد ويتشكل. أما حين يموت ويندثر، فتتهالك هذه العناصر واحدة واحدة.

❦ طالع: «شروط النهضة» لمالك بن نبي؛ بخاصة فصل «التوجيه العملي».



قال الله تعالى:

﴿ 24 ﴾ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَمِ  
﴿ 25 ﴾ فَبِأَيِّ آيَةٍ الرَّبِّ كَمَا تُكذِّبَانِ

### بذور المعنى

❏ ﴿وَلَهُ﴾: أي هي له وليست لغيره؛ حتى وإن صنعها الإنسان، فإنَّ خصائص الماء، والموادَّ التي صُنعت بها، والمعارفَ التي تعلَّمها الإنسان ليصنعها... وغير ذلك مما هو شرط في صناعة السفن، كلُّ ذلك لله تعالى.

❏ ﴿الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ﴾: الجواري هي السفن التي تجري في البحر، وهي التي بُنيت بنيانًا، ورُفعت أشرعتها رفعا؛ ويقال في مجال الصناعة: «منشأة صناعة

السفن» ومنه المنشآت جمع منشأة؛ وفرق بين الورشة التي هي في المجالات البسيطة مثل الحدادة والنجارة، والمنشأة التي هي للمجالات المعقدة مثل السفن، والطائرات، والسدود... وغيرها.

❖ ﴿الْأَعْلَمُ﴾: أي كالجبال الشاهقات، وفي بيت الخنساء تصف أخاها صخرًا وتقول: «كأنه علم في رأسه نار» أي جبل على قمته نارٌ مستعرة، تظهر من بعيد.

❖ واليوم نشاهد السفن العملاقة مثل مدينة أو جبل يتحرك فوق الماء، من نعمة الله تعالى على عباده، ومن جميل رحمته ورحمانيته.

❖ ﴿فِي أَيِّ آيَةٍ رَّبِّكُمْ تَكْذِبَانِ﴾: بأي نعمة من نعم الله تكفرون، وأنتم تمخرون عباب البحار، وينجيكم الله من الغرق في كل مرة، إذ قلما غرقت سفينة في البحر أو المحيط؛ وليس ذلك من عبقرية الصانع فقط؛ ولكن من هداية الله تعالى له، وللعلم الذي أودعه فيه. فوجب أن تشكر النعم ولا تكفر.

❖ والسؤال المحير هو: هل للجن سفن وجوار منشآت مثل الإنس؟ أم أن صناعة السفن خاص بالإنس، وللجن علم وعلاقة بها؟ بخاصة أن السؤال التقريري

عن نعمة ﴿الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ﴾ مَوْجَهُ لِلْإِنْسِ وَالْجِنِّ عَلَى  
السَّوَاءِ؟ اللَّهُ أَعْلَمُ.



## التشغيل والتفعيل

❏ لم يعرف الرسول ﷺ في عهده سفناً بحجم الجبال  
الرواسي، بل كانت السفنُ في عصره صغيرة، قد تشبَّه  
بالأكمة والتلة؛ ولكنَّ التشبيه بالجبال المنشآت  
الشواهد، من إعجاز الله تعالى، وهو دليل على  
أنَّ القرآن الكريم من عند الله الذي خلق البحر،  
والسفينه، والإنسان، والقرآن، والعلم... وهو  
عليم بها في كل زمان ومكان.

❏ أكبر باخرة في العالم تسمى ( **Harmony of the seas** ) (تناغم البحار)، طولها أكثر من ثلاثمائة  
متر، وهي أطول من خمس طائرات بوينغ، مدعومة  
بثلاث محركات، كل منها بسعة 25 ألف حصان؛  
تتكون السفينة من 18 طابقاً، وتتوزع على سبعة  
أحياء، مثل أحياء المدن؛ ويمكنها حمل حوالي  
سبعة آلاف راكب؛ وطاقم السفينة يتكون من أكثر  
من ألفي عامل.

يعود إنتاج نصف عدد السفن حول العالم عبر عقودٍ طويلة إلى دولة اليابان؛ بخاصة السفن الضخمة، مثل ناقلات النفط، وحاملات الطائرات؛ أمَّا في السنوات الأخيرة فالصين وكوريا الجنوبية هما المنافسان لليابان في هذا المجال، وقد تقدما عليها. ويذكر أنه في عام 2010 «شكلت اليابان ما يقارب خمُس السفن المصنوعة في العالم بحسب حمولتها بالطنّ أي 20%، مقارنة بنسبة 38% للصين و 34% لكوريا الجنوبية؛ بينما لا يتعدى نصيب أوروبا سوى 7% فقط».



## ٥٠ من الفكر إلى الفعل

٥٠ للأسف، ليس للمسلمين يد في صناعة السفن، ولا في صناعة المحطات البترولية العائمة، وهم بذلك يعصون الله سبحانه في أمر حضاري من أوامره الأكيدة في القرآن الكريم.

٥١ حين ركوبنا السفينة، أو الطائرة، أو أي مركوب آخر، نقول: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾، ونقول: ﴿بِسْمِ اللَّهِ جَرَّبْنَاهَا وَمُرْسِنَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

٥٢ للمطالعة: كتب وأشرطة عن «التيانيك» السفينة البريطانية الكبيرة، التي غرقت في 14 أبريل 1912.

٥٣ شاهد أفلام وثائقية للمستكشف الفرنسي، العالمي الشهير كوستو «Jacques-Yves Cousteau»، توفي عام 1997. ومن أبرز طلبته، والمتفوقين في هذا المجال اليوم عالميا، بخاصة في استكشاف القطب الجنوبي، العالم الجزائري المسلم «طارق شقشاق».



قال الله تعالى:

كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَى وَجْهُ  
رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَيَأْتِيءَ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ ﴿٢٨﴾

### بذور المعنى

جميع النعم التي ذكرت من أول السورة إمّا ليس للإنسان يدٌ فيها مثل الشمس والقمر، أو أنّ تدخُّله محدودٌ، وظاهرٌ عجزه، من مثل الفواكه والنخل؛ إمّا الجوّاري والسفن والمراكب، فيظنُّ الإنسان أنه هو الذي أبدعها، وبالتالي يردد مع صاحب الجنة الجاحد: ﴿مَا أَظُنُّ أَنْ تَبَدَّ هَذِهِ أَبَدًا﴾؛ فجاءت الآية جواباً مُكبتاً: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾.

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا﴾: للعاقل، أي الإنس والجان، وهما

المخاطبان بالنعمة في مجمل الآيات؛ أو يدخل فيه حتى غير العاقل، تغليبا للعاقل على غيره، أي «من عليها، وما عليها»، كما ورد في آيات مفسّرات أخرى.

❖ ﴿فَإِنَّ﴾: تزول الحياة عنه، أو هو هالك، من الفناء وهو الزوال والهلاك، ضد البقاء؛ وفي هذا «زجر عن أن يفوتك بعض من عمرك في غير طاعة»، ما دام الفناء هو نهايتك، والجزاء الدائم المقيم هو مصيرك.

❖ ﴿وَبَقِيَ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾: من أسماء الله الحسنى «الباقي»، و«الدائم»؛ ومن معاني ﴿وَجْهَ رَبِّكَ﴾ الجهة التي أمرنا الله تعالى بالتوجه إليها؛ أو ﴿وَجْهَ رَبِّكَ﴾ أي ذاته سبحانه جَلَّ جَلَالُهُ.

❖ ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾: صفة للوجه. و﴿ذُو الْجَلَالِ﴾ هو صاحب العظمة، والغنى المطلق. ﴿وَالْإِكْرَامِ﴾ صاحب الكرم الكامل والفضل التام.

❖ نعممة العبادة، ونعمة تذكّر الموت، ونعمة الارتباط بذِي الجلال والإكرام، ونعمة معرفة قدر الله تعالى حقّ المعرفة، ونعمة كونه تعالى ذا إكرام، وكونه سبحانه جليلا لا يغلبه أحد... جميعها نعم لا حدّ

لها ولا حصر، فكيف يكفرها الإنسان والجان؟  
وكيف يجحدها المحتاج؟  
ربنا ما كفرنا نعمتك، فما أحوجنا إليك «يا ذا  
الجلال والإكرام».



## التشغيل والتفعيل

الفناء عامٌ لمن في السماوات ولمن على الأرض،  
وإنما خُصَّت الأرض ومن عليها بالذكر ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا﴾  
أي على الأرض؛ لأنها ألصق بحياة المخاطبين  
بالقرآن، وهم المعنيون بالتذكير في حمأة الغفلة  
وغمرة النسيان.

الفناء فناء ان: خاصٌ بكلُّ مخلوق حسب عمره  
المقدَّر له، وعامٌ لكلِّ الخلائق حين يعمُّ الكون  
الصمت والسكون، ولا يبقى إلا وجهُ الله تعالى،  
ثم يقال حينها: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾، فيأتي الجواب:  
﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾.

في ﴿الْجَلْدِ﴾ معاني الاعتلاء، والترفع، والعظمة،  
والكبرياء، والإحاطة، والعزة، والغلبة. وفي  
﴿وَالْإِكْرَامِ﴾ معاني الحُسن، والرحمة، والجود، والجمال؛

وتسمى الأولى «صفات الجلال»، والثانية «صفات الجمال».

❖ فناء الموحدين مفتاح للبقاء الدائم، ومقدمة للجنة ونعيمها الدائمين؛ أمّا فناء الكفار والمشركين فسبب لخلودهم الدائم في الجحيم والعذاب الأليم؛ والحكيم من يبيع الفاني ليقبض الباقي، أمّا المغبون فهو الذي يبيع الباقي ويقبض الفاني. ❖ القاعدة الكلية: «إنَّ بقاء الاسم فرع من بقاء المسمّى»، ويستلزم منطقيًا أنّ «فناء المسمّى مقدّمة لفناء الاسم» وليست شرطًا، فقد يفنى الشيء ويبقى اسمه.

❖ سمع رسول الله ﷺ رجلا وهو يقول في صلاته: «يا ذا الجلال والإكرام»، فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «استجيب لك فسَلْ»، وما من شكّ أنّ الاستجابة لا تخصّ الصحابي الجليل، بل هي وعدٌ من الله تعالى لكلّ من دعا بها موقنا مخلصا في دعائه.



## من الفكر إلى الفعل

- ❦ في الحديث الشريف: «أَلِظُوا بِـ" يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ"» أي الزموا الدعاء بها، وأكثروا منها، وداوموا عليها.
- ❦ لنكثر من «يا ذا الجلال والإكرام» في صلاتنا، حتى يستجاب لنا.
- ❦ المؤمن لا يتعلق بالدنيا، وإنما يعمل في الدنيا للأخرى موقنا زوال الأولى، ودوام الأخرى.
- ❦ عبادة الله **جَلَّ جَلَالُهُ** من مقام الفناء لمقام البقاء، وباعتقاد الزوال ابتغاء الخلود؛ تعلي من شأننا عند الله تعالى، وتجعل عملنا مخلصا له سبحانه.
- ❦ للقراءة: «فن الذكر والدعاء» للعلامة الشيخ محمد الغزالي.



قال الله تعالى:

يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾  
فِي أَيِّ آيَةٍ الْآيَةِ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ ﴿٣٠﴾

### بذور المعنى

﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: أي بلسان حالهم وهم مفتقرون إليه، ولسان مقالهم وهم إليه متوجّهون. وسؤال الخلق للخالق سؤال حاجة إليه وتعلّق به، وتمسك بذيل غناه وجوده، سبحانه وهو القائل: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾، ﴿وَأَنْتُمْ مِّنْكُمْ مَّنْ سَأَلَ تَمَوْهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾.

ولا معنى لتخصيص السؤال من أي جهة من الجهات، أي تعيين الذي يسأله سبحانه، وما يسأله به جل

شأنه: من جهة السائل مثل الإنس أو الملائكة، أو من جهة السؤال مثل الرزق أو المغفرة؛ والصواب التعميم لكل سائل في كل سؤال؛ مع مطلق الزمان والمكان والحال، وملكه **جَلَّ جَلَالُهُ** لا ينقص بالعطاء.

❖ أهل السماء يسألونه المغفرة، وأهل الأرض من المؤمنين يسألونه الرزق والمغفرة، أمَّا الكفار الخاسرون فيسألونه الرزق لا غير ❖ **فَمِنْ النَّكَاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا** ❖، ثم يأتي الجواب: ❖ **وَمَا لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ** ❖ أي من حظٍّ ونصيب؛ ومن ثم يكون سؤال الكافر بالله سبحانه سؤال حال لا سؤال مقال، وهو جاحد به.

❖ ❖ **كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ** ❖: كلَّ آن - وكلَّ وقت ولو دقَّ - هو في تدبير شؤون الكون، لا يشغله شأن عن شأن؛ كلَّ وقت يخلق ويرزق ويحفظ، ويحيي ويميت... ويرفع قوما ويخفض آخرين.

❖ ❖ واليوم في القرآن الكريم له عدَّة معان، تفهم بناء على سياقها.

❖ ❖ الصواب أنَّ كلَّ ما يفعله الله تعالى مما يُنسب إليه: خلقا وابتداء، أو صيانة وتسوية، أو تقديرا وعدلا، أو إفناء وإهلاكا، أو رفعا وخفضا... يسمَّى شأنًا،

وهو لا يشغله عن غيره، أمّا البشر فهم لضعفهم إذا اهتموا بشأن غفلوا عن أشياء.

❏ تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ فقال الصحابة: يا رسول الله، وما ذلك الشأن؟ قال: «يغفر ذنباً، ويفرّج كرباً، ويرفع أقواماً، ويضع آخرين». وهذا الحديث للتمثيل حسب السياق، لا لعموم الشأن في كل سياق.



### التشغيل والتفعيل

❏ لا يتكرر فعلٌ من أفعال الله تعالى مرّتين؛ لأنّ التكرار من صفات الضعف؛ ولا يماثل شأن من شؤونه شأننا آخر، بجميع الاعتبارات؛ وإنما سبحانه يفعل من غير مثالٍ سابقٍ، وهو معنى الإبداع وطلاقة القدرة، والجلال والجمال.

❏ قاعدة: «لا يشبه خلق من خلق الله تعالى خلقاً آخر شبهها مطلقاً»، و«لا يختلف خلق عن خلق على الإطلاق»؛ إذ لا بدّ من وجه شبه، ووجه اختلاف. فنفي الشبه مطلقاً، واعتبار الاختلاف مطلقاً؛ إنما هو بين الخالق والمخلوق: ﴿أَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ

## السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٦٠﴾ .

﴿٦٠﴾ يُسأل الله تعالى كَلَّ حاجة صغرت أم كبرت؛ قال رسول الله ﷺ: «ليسأل أحدكم ربّه ولو في شراك نعل»، ولو تأملنا لعلمنا أنّ ربط شراك النعل يستوجب كثيرا من النعم التي قد تخفى على أحد: العقل، التوازن، الأمن، الأيدي، الأصابع، العلم... إلخ. من بديع معاني الشأن قول الحسن بن الفضل: «الشأن سَوَّقُ المقادير إلى المواقيت». أي إنزال ما قدره على خطّ الزمن.

﴿٦١﴾ ما يسأله الخلق لا يحصيه أحدٌ إلاّ الله سبحانه، كما لا نحصي نعمه، ولا خلقه سبحانه جلّ شأنه، وعظم قدره.

﴿٦٢﴾ تحوُّل أصغر جزء من المادة من حال العدم إلى الوجود أو العكس، من السكون إلى الحركة أو العكس، من الجوهر إلى العرض أو العكس... كلُّ ذلك شأنٌ، يعلمه الله تعالى، وهو خالقه. فمثلا باعتماد «نظرية التضخم الكوني»، تتراوح عدد الذرات في الكون ما بين  $4 \times 10^{78}$  و  $10 \times 10^{79}$  تقريبا. ولأنّ الكون لا نهائيٌّ فإنّ عدد الذرات أيضا يمكن أن يكون متوجها نحو اللانهاييّ. وهذا لا يتنافى مع

العدد الذي تم حسابه؛ نظراً لأن الكون الخاضع للدراسة يقع ضمن 90 مليار سنة ضوئية. وإذا حسبنا جزيئات الطاقة، و "بيتات" المعلومات، والأوتار... وغيرها، فإننا نعجز عن العد، وكلها في حاجة إلى الله تعالى سبحانه.



## من الفكر إلى الفعل

الله **جَلَّ جَلَالُهُ** هو وحده «محطُّ السؤال، ومناطُ الرجاء، ومعقدُ الآمال»،

الحاجة من الخلق متحققة، والجواب من الله تعالى وعدُّ؛ وشتان بين من يبدي حاجته لربه، ومن يتكبر عنه **جَلَّ جَلَالُهُ**.

«إنَّ الله تعالى لا يملُّ حتى تملُّوا». منطقُ يخالف منطق الحاجة والسؤال بين الخلق، إذ السائل لا يملُّ، والمسؤول يملُّ. سبحانه هو الكريم الجواد.

عن جويرية **رَضِيَ اللهُ عَنْهَا** أن النبي **ﷺ** خرج من عندها بكرة حين صلى الصبح وهي في مسجدها، ثم رجع بعد أن أضحى وهي جالسة، فقال: ما زلت على الحال التي فارقتك عليها! قالت: نعم، قال النبي **ﷺ**: لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات، لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن، سبحانه الله وبحمده: عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته.

للتوسع عن اليوم في القرآن الكريم: «مفهوم الزمن في القرآن الكريم» محمد باباعمي.

قال الله تعالى:

سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ آءِ الرَّبِّ كَمَا تُكذِّبَانِ ﴿٣٢﴾

### بذور المعنى

- ❑ ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾ بالنسبة للبشر، التفرُّغ هو ترك ما سوى الشيء والاهتمام به بكلِّ طاقتك؛ وسنفرغ في الآية، وفي حقِّ الله **جَلَّ جَلَالُهُ**، معناه: سنحاسبكم محاسبة المتفرِّغ للأمر غير المنشغل عنكم بشيء. لأفرغنَّ لك: يقال في الوعد، ويقال في الوعيد.
- ❑ غير أنَّ الله تعالى لا يشغله شأنٌ عن شأن، وهذا المعنى كنى به سبحانه عن المبالغة في الانتقام لمن كفر نعمه يوم القيامة، وكذَّبَ بآلائه **جَلَّ جَلَالُهُ**.

❖ والله تعالى ليس مشغولا فيفرغ، وإنما هو تقريبٌ للتصور البشري. ولذا فمسألة الفراغ في حق الله تعالى واردة على سبيل الكناية لا الحقيقة، وهو إحاء تعبيريٌّ يتحدَّى غفلة الإنسان.

❖ الآية وعيدٌ وتهديدٌ على المعصية لجميع المكلفين من الثقلين: الإنس، والجن. يقول الشيخ بيوض «في رحاب القرآن»: «هذه الآية من أشدَّ آيات القرآن الكريم تهديدا... إنَّ هذا التهديد حقًا هو أعظم تهديد في القرآن الكريم، إذا فهمنا معنى سنفرغ».

❖ قال رسول الله ﷺ للشيطان يوم بيعة العقبة متوعدا مهذدا: «أما والله لأفرغنَّ لك».

❖ ﴿أَيُّهُ الثَّقَلَانِ﴾ سميَ الجن والإنس ثقلين لشرف قدرهما ومكانتهما عند الله تعالى. أو سميا ثقلين لثقلهما بالتكليف، أو لثقلهما على الأرض؛ والثقل في هذه الحال معنويٌّ وليس حسيًّا؛ أي أنهما يثقلان على الأرض بالإفساد فيها، وبمعصية الخالق، وباجتراح السيئات، وبالحراب والفتن؛ لا ثقلا ماديا بالوزن؛ ذلك أنهما وزنًا لا يمثلان شيئًا إذا ما قورنا بالجبال والبحار وبسائر المخلوقات:

﴿ لَخَلَقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ .

❖ لا ندري هل التهديد من الله تعالى للثقلين خاصٌّ بالدنيا، أم هو خاصٌّ بالآخرة؛ أم أنه عامٌّ للدنيا والآخرة؛ ولا نعرف ما نوع العذاب الذي يسلّطه تعالى على من فرغ إليه. كلُّ هذا من علم الغيب، لا يدركه العقل المجرد، وإنما نؤمن به إيماناً صادقاً.

❖ ﴿ فَيَأْتِيءَ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾: بأيّ نعمة من نعم الله تعالى تكذّبان؟ ومنها نعمة الإخبار أنه سبحانه سيفرغ لنا، فإنه زاجرٌ عن المعاصي، دافعٌ إلى الطاعات، مستعجلٌ للتوبة، داعٍ إلى النجاة. سبحانه هو الواحد القهار.



## التشغيل والتفعيل

❖ قبل البدء في بيان معنى هذه الآية تملكطني رهبةٌ ووجلٌ شديدٌ؛ ولولا أنني مع سورة الرحمن، وأني آويت إلى ركنه الشديد متعلقاً برحمته ورحمانيّة، لما تجرأت على كتابة حرفٍ واحدٍ؛ ولوقعتُ مثل سيدنا، موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، صعقاً من هول المقام:

﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ .

❖ يقول القطب اطفيش في «تيسير التفسير»: هذه الآية أشدُّ عليَّ كما شدَّ على رسول الله ﷺ قوله تعالى: ﴿فَأَسْتَقِمَّ كَمَا أَمَرْتَ﴾... لأنها جاءت على شكل من له مملوكٌ أنعم عليه ولم يشكُر، فقال: سأترك الأَشغال كُلَّها، وأعاملك بما تستحقُّ.

❖ الشيخ الشعراوي في خواطره حين وصل إلى هذه الآية جفَّت الكلمات في ماقيه، ولم يتوسع في التفسير والبيان، وهو من هو باعًا في الفهم والإفهام.

❖ ويقول سيد قطب في «في ظلال القرآن»: «يا للهول المرعب المنزل، الذي لا يثبت له إنس ولا جانٌّ. ولا تقف له الجبال الرواسي ولا النجوم والأفلاك! الله جَلَّ جَلَالُهُ... الله القويُّ القادر، القهَّار الجبار، الكبير المتعال. الله سبحانه يفرغ لحساب هذين الخلقين الضعيفين الصغيرين: الجن والأنس. في وعيد وانتقام!».



### ٥٠ من الفكر إلى الفعل

٥٠ أقل ما تفيد الآية المؤمن أن يسارع إلى التوبة من ذنوبه، ويذكر نعم الله عليه؛ قبل أن يفرغ الله تعالى لحسابه يوم القيامة، وهو حق، واقع، لا شك آت.

٥١ ما ورد في الآية من معنى يفوق كل تصور بشري، وكل احتمال يحتمله خلق من خلق الله؛ ولذا لزم مقام التسليم لله تعالى في هذا الشأن، والاحتماء برحمانيته ورحيميته.

٥٢ من وصايا أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز: «إنا قوم من أهل الآخرة، أسكننا الدنيا، أموات أبناء أموات، والعجب لميت يكتب إلى ميت، ويعزيه عن ميت». ثم قال: «أصلحوا آخرتكم تصلح لكم دنياكم».



قال الله تعالى:

يَمَعَشَرُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا يَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴿٣٥﴾  
 فَيَأْتِيءُ الْآءَ رَبِّكُمْ أَنْ كَذَّبْتُمْ عَنْهَا كَذِبًا بَانٍ ﴿٣٦﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمْ شَوَاطِدٌ مِّنْ نَّارٍ وَخُمُاسٌ فَلَا تَنْتَصِرُونَ ﴿٣٥﴾ فَيَأْتِيءُ الْآءَ رَبِّكُمْ أَنْ كَذَّبْتُمْ عَنْهَا كَذِبًا بَانٍ ﴿٣٦﴾

## بذور المعنى

❖ ﴿يَمَعَشَرُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ﴾: الخطابُ للثقلين من الجنِّ والإنس؛ وقدَّم الجنَّ على الإنس لأنَّ المقام مقام نفاذٍ وسُرعة، والجنُّ أكثر نفاذاً وأسرع من الإنس، لقوله تعالى: ﴿قَالَ عَفَرْتُ مِّنَ الْجِنَّ أَنَا إِنِّي بِهٖ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ وهذا لا يقدره إنسان بملكاته المعهودة.

❖ هل الخطاب من خطابات يوم القيامة؟ أم هو من خطابات الدنيا؟ يبدو أنَّ الخطاب جارٍ في أحكام الدنيا، والله أعلم.

﴿إِنْ أَسْأَلْتُمْ أَنْ تُفْعَلُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَأَنْفُدُوا﴾: إن قدرتم أن تفرّوا بالنفوذ من نواحي السموات والأرض والخروج من ملك الله تعالى، والتخلّص من حسابه وعقابه، فافعلوا. وذلك على سبيل التحدي لعدم القدرة على ذلك.

﴿لَا تُنْفَذُونَ إِلَّا لِسُلْطَانِي﴾: السلطان هنا القدرة الإلهية، والسلطان العلم اللدني، العلم الكسبي أو المكتسب؛ وليس كما قيل إنّ السلطان هو العلم؛ ذلك أنّ العلم لا يجعل الإنس والجن قادرين على الخروج من ملك الله تعالى، وعلى التخلص من حسابه وعقابه جلّ شأنه، وتعالى قدرته.

﴿فِي الْإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ نَفَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَمَعَهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ﴾ من أقطار السموات والأرض إلى عالم آخر، فيه يصف الجنة والنار وأحوالهما، كما ورد في أحاديث الإسراء والمعراج. لعلّ الحدّ هو ما بين الواقع الدنيوي والواقع الآخروي؛ حتى وإن تجاوز تراتبية الزمان والمكان. ولا ريب أن نفاذه كان بأمر من الله تعالى، وليس من مقدور البشر بملكاته، وعلمه، ووسائله أن يفعله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾.

- ❖ ﴿رُسُلٌ عَلَيْكُمُ شَوَاطِئٌ مِّن نَّارٍ﴾: الشواظ هو اللهب الذي لا دخان فيه. ﴿وَنُحَّاسٌ﴾ الدخان لا لهب فيه. أو هي نار وقودها من معدن النحاس الذائب، ومعلوم أنَّ درجة ذوبان النحاس وانصهاره في الصناعة، هي 1084.62°م. غير أنَّ خواص المواد في القضايا الغيبية، وفي الآخرة؛ غير خواصها في الدنيا.
- ❖ ﴿فَلَا تَنْصَرِكُمْ﴾: أي لا تقدران على نصره بعضكما بعضاً، ولا عاصم اليوم من الله إلا هو.
- ❖ ﴿فِي أَيِّ آيَةٍ رَبِّكُمَا تَكْذِبَانِ﴾: بأي نعمة تكذبون فيما ترون من قدرته الشاملة، وعجزكم المطلق أمامه؟



## التشغيل والتفعيل

- ❖ هل لو أعطي إنس أو جنُّ سلطاناً من الله تعالى يخرج من ملكه؟ لا أحد يخرج من ملك الله تعالى؛ ولذا يبدو على توجيه الآية إلى معنى «الخروج من ملك الله» اعتراض وإشكال. ولعل الآية دالة أنَّ ما وراء ﴿أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ هي عوالم أخرى، ومخلوقات كونية لا تسمَّى سماء ولا أرضاً؛ ويمكن بالتالي الخروج من أقطار السموات والأرض إلى

هذه العوالم، التي هي من خلق الله تعالى كذلك. ولذا لا يكون الفرار من ملك الله إلا إلى ملك الله سبحانه.

❏ حين صعد الإنسان إلى القمر قال المرجفون: كيف تقولون إنَّ الإنس لا يخرج من ملك الله، ها قد وصل إلى القمر، ونفذ من قطر السماء والأرض. وهذا جهلٌ محضٌ؛ ذلك أنَّ القمر حيٌّ قريب من أحياء المجموعة الشمسية، وكونُ الله تعالى يقدر بمليارات السنوات الضوئية طولاً وعرضاً، وهو في توسع دائم؛ فالنفاذ من أقطار هذا الكون، بل وحتى تصوره وحسابه علمياً مستحيلٌ، إلاً بنظريات تقديرية لا ترقى إلى اليقين؛ فكيف بالوصول إلى هناك، والخروج من ملكه جلَّ شأنه: ﴿قُلْ الْإِنْسَانُ مَا أَفْرَهُ﴾.



## من الفكر إلى الفعل

الوصول إلى سطح القمر هو بمثابة بلوغ حي في مدينة بالنسبة للكون، ولو تأملنا المسافات الكونية لفهمنا ذلك.

سلطان العلم لا يمكن الإنسان من التفلت من كون الله تعالى، ولا من إرادته.

كلما تقدم الإنسان في اكتشاف سعة الكون كان لزاما عليه أن يزداد إيمانا بالخالق، غير أن النظرية المادية الإلحادية تعود به القهقري، وتجعله يكفر في موطن الإيمان، ويجحد بدلا عن الاعتراف بالخالق الواحد الأحد، الفرد الصمد.

للقراءة: «أسرار الكون» (Les Secrets de l'univers):

**Hubert Reeves**



قال الله تعالى:

فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾  
فَبِأَيِّ آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ ﴿٣٨﴾

### بذور المعنى

- ❖ ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾: انفلقت وانصدعت وانقسمت؛ وكذلك انفرجت أبواباً لنزول الملائكة.
- ❖ وانشقاق السماء من علامات يوم القيامة، ومن معاني الانشقاق كذلك تغيير لونها، أو هو لازم المعنى، أي حين تنشقُّ يتغير لونها؛ قال تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۙ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وُحُفَّتْ﴾.
- ❖ ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾: ذكرت في معنى «الدهان» تفسيرات كثيرة، وأغلبها مال إلى التشبيه من

حيث اللون، ولا دليل على تخصيص تشبيه السماء بالورد الذي كالدهان من حيث اللون فقط؛ ومن تلك المعاني: «كدهن الزيت»، «الأديم الأحمر»، «النورة التي تنبت ولها رائحة»، «الفرس الوردية»، «وردة صفراء»؛ أمّا الألوان التي فسّرت بها الآية فهي: الحمرة، والصفرة، والخضرة، وألوان أخرى.

❖ هما تشبيهان: التشبيه بالوردة أي الزهرة الحمراء، وتشبيه ثانٍ بالدهان الذي هو دردي الزيت. يوم تقوم الساعة تذوب كواكب السماء كما يذوب الدهن على النار. ومن ثم يعجز العقل البشري من تصوّر هول هذا الانشقاق، ويلوذ بالإيمان والتصديق، فينادي بأعلى صوته: سبحانك... سبحانك.

❖ تشير الآية إلى حدوث دمارٍ كاملٍ، واضطرابٍ مهولٍ، في الأفلاك جميعها، وهي بذلك تخرج عن نسقها، وعن العدل والتوازن الذي وصفت به أوّل السورة ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ...﴾ ويصدق أن نقول: «وأحوال تلك الدار ليست كهذه».

❖ ﴿فَإِيَّاءِ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبان﴾: نعمة بيان أهوال يوم القيامة، كي يستعدّ المسلم، ويتعلّق بربه سبحانه ليوم تتقلّب فيه القلوب والأبصار، يومٍ شديدٍ وعسيرٍ إلّا على

المؤمنين؛ أمّا الجاحد الكافر المكذّب فتكون عليه حجّة، ولقد قامت عليه الحجّة.

❖ فاللهم يسّره علينا برحمتك ورحمانيتك، يا رحمن يا رحيم. آمين.



### التشغيل والتفعيل

❖ كان من الأولى الاعتراف بأن التشبيه بـ«الوردة كالدهان» لا نعلمه بالتحقيق، وإنما هو نوعٌ من التقريب اللغويّ، والربط اللفظيّ؛ وللمفسر أن يجتهد، ولكن عليه أن ينبه القارئ بأنّه لم يستقم له دليل على اختياره؛ وهذا تأسياً بأمر الكلالة حين سئل عنها سيدنا أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: «إني سأقول فيها برأبي؛ فإن كان صواباً فمن الله، وإن كان خطأ فمني ومن الشيطان»، وحين سئل عن الأَبِّ قال: «لا أدري»، فتعجّب من معه، فقال: «أيُّ سماء تظلني؟ أو أيُّ أرض تُقلّني؟ إن قلت في كتاب الله ما لا أعلم».

❖ «مصير الكون ومستقبله»: من مواضع علم الفلك، وعلم الكون الفيزيائي، وهو عبارة عن توقّعات

ونظريات؛ وثمة ثلاث نماذج علمية مختلفة تتنبأ بمصير الكون النهائي، وتعرف ب: الكون المفتوح، والكون المغلق، والكون المتذبذب؛ غير أنها جميعاً لا ترتبط بصلة بما ورد في القرآن الكريم. ثم إن علماء المسلمين لم ينقلوا الحقائق العلمية التي يتوفر عليها كلام ربنا إلى حقل العلوم المعاصرة. فضاعت الحقيقة بين باطلين.

❖ «علم غريب القرآن»: هو علمٌ يُعنى بدلالة الألفاظ، دون غيرها من المباحث في الأسلوب والمعاني والتفسير. وهو جزء من «علم معاني القرآن». والغالب فيه البحث في الألفاظ الغريبة غير المألوفة في لغة العرب. والآية تشتمل على ألفاظ غريبة: وردة، دهان.

❖ روي عن النبي ﷺ أنه أتى على شاب في الليل يقرأ «إِذَا انشَقَّتْ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدَّهَانِ» فوقف الشاب وحنقته العبرة، وجعل يقول: «ويحي من يوم تنشقُّ فيه السماء ويحي!» فقال النبي ﷺ: «ويحك يا فتى مثلها، فوالذي نفسي بيده، لقد بكت ملائكة السماء لبكائك».

### • من الفكر إلى الفعل

• لا بد من استذكار رحمة الله تعالى بنا حين يحذرنا من عواقب المعصية، ومن أهوال يوم القيامة؛ ولو شاء تعالى لما فعل، ولهكننا جميعاً.

• من دعاء رسولنا الكريم ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من شر ما عملتُ، ومن شر ما لم أعمل. اللهم إني أعوذ بك من يوم السوء، ومن ليلة السوء، ومن ساعة السوء، ومن صاحب السوء، ومن جار السوء؛ في دار المقامة».

• طالع «كتاب المفردات» للراغب الأصفهاني، في غريب القرآن.



قال الله تعالى:

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ (39) ﴿فِي أَيِّ آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تَكْذِبَانِ﴾ (40)  
 ﴿يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالتَّوَصِيِّ وَالْأَقْدَامِ﴾ (41) ﴿فِي أَيِّ آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تَكْذِبَانِ﴾ (42)

### بذور المعنى

- ❖ ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾: مواقف يوم القيامة كثيرة، منها هذا الموقف الذي يُعرف فيه المجرمون، ولا يسألهم الله تعالى، ولا الملائكة الكرام، ولا من حولهم، لا يسألونهم عن ذنوبهم؛ ذلك أن الألسن تخرس، وتقوم مقامها صفات الشقاء والخسران البادية في الوجوه. وهذه الآية نظير قوله تعالى: ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾.
- ❖ في آيات من كتاب الله تعالى عن يوم القيامة نقرأ

سؤال الله تعالى للكفار، بأمره للملائكة، قال جل من قائل: ﴿وَقَفُّوهُمْ إِنِّهِمْ مَسْئُولُونَ﴾، وفي الآية التي نحن بصددها نقراً ﴿وَلَا يَسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾؛ وفي آيات أخرى ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾، وفي آيات أخرى لا يُسمح بالجدال ولا بكلمة واحدة ولا خصام؛ ولقد ادّعى المستشرقون في هذا تناقضاً لقصر نظرهم؛ ذلك أنّ الجواب كالاتي:

❖ يوم القيامة يومٌ طويل، ومواقفه كثيرة، فلا تناقض إذن بين موقف يُسأل فيه المجرم، وموقف آخر يؤمر بالسكوت، وموقف آخر يسمح له بالجدال، وآخر يمنع عنه الكلام.

❖ ثم إنّ السؤال في العربية له معانٍ مختلفة، وتفسّر حسب سياقها، ومن لم يتذوّق بلاغة القرآن وقع في سوء الفهم، وسوء التفسير، ثم توهم التناقض.

❖ السؤال في العربية له معنى الاستفهام عن شيء لا تعلمه، فهذا ما لا يُسأل عنه المجرم؛ لأنّ الله تعالى يعلمه وقد أحصاه له؛ ومنه سؤال بقصد تقرير الحقّ والتوبيخ، والله تعالى هو أعلم به من المجرم المسؤول عنه؛ فهنا يُسأل المجرم ليقرّ ويعترف على نفسه.

❖ ﴿يَعْرِفُ الْمَجْرُمُونَ بِسِمَتِهِمْ فَيُؤَخَذُ بِالنَّوْصِي وَالْأَقْدَامِ﴾: لنا أن نتصور موكبا من الملائكة الغلاظ الشداد، يمرُّون على الأَشهاد، ويعرفون كلَّ مجرم بسيمًا وجهه، وبعلامه جبينه؛ ثم يأخذونه وهو خائف متحسّر باكٍ، ولا يأخذونه من اليد؛ ولكن يجمعون ناصيته مع قدمه، ثم يقذفون به في النار؛ فيعذب حسيًّا بالنار، ويعذب معنويًّا بالهوان.

❖ ﴿فِي أَيِّ آءِ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبان﴾: فبأي نعمة من نعم الله يكذب الثقلان؟ بنعمة التحذير من عذاب الله؟ أم بنعمة التوبة على الذنب لمن اعتبر بالآية، وتاب واستغفر، وعاد إلى الله **جَلَّ جَلَالُهُ** قبل فوات الأوان؟ أم بأي نعمة يكذب الأَشقياء؟



## التشغيل والتفعيل

❖ كلما شدّد الله تعالى في وصف أهوال يوم القيامة في القرآن الكريم كان ذلك دليل رحمة منه سبحانه بعباده؛ وذلك حتى لا يستهزئوا ولا يسوفوا، وحتى يُمعنوا في الوقاية من النار بإتيان الطاعات وترك المعاصي؛ والذي يحبُّ أحدًا يبالغ في تحذيره من

المخاطر، ويكبرها في عينه؛ كي لا يأتيها. أمّا من صغر في عينك الخطر الكبير، فإنه يخدعك ولا ينصحك.

❖ ثمة تلازم بين أخذ المجرمين بالنواصي في هذه الآية؛ وقوله تعالى: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ في سورة العلق؛ وذكر بعض العلماء «أنّ الإنسان إذا أراد أن يكذب؛ فإنّ القرار يتخذ في الفص الجبهي للمخ الذي هو جبهة الإنسان وناصيته، وإذا أراد الخطيئة فإنّ القرار كذلك يتخذ في الناصية». وتبقى المسألة محلّ بحث وتحقيق علمي دقيق.

❖ هل تدلّ الآية على أنّ للجنّ كما للإنس «ناصية» وقدا؟ أم أنّ صورة الأخذ «بالنواصي والأقدام» خاصة بالمجرمين من الإنس، أمّا المجرمون من الجنّ فلم تذكر الآية صورة أخذهم؟ سبحانك لا علم لنا إلّا ما علّمتنا...



## من الفكر إلى الفعل

- ❖ قاعدة كلية: كلما نُفي السؤال - في القرآن الكريم - من الله تعالى للمجرم فهو سؤال استفهام، وكلمة أثبتت فهو سؤال تقرير وتوبيخ.
- ❖ سيما المجرمين: سواد الوجوه، وزرقة العيون، وكآبة تعلو الجباه، وحزنٌ وعمى، وبُكم وصمم. فلنتق الله تعالى، ولنكن من المؤمنين.
- ❖ للقراءة: «مشاهد يوم القيامة» لسيد قطب؛ و«فتح نوافذ القرآن» لأبي اليقظان إبراهيم.
- ❖ اقرأ مقال: «ناصية كاذبة خاطئة» عبد المجيد الزندانى.



قال الله تعالى:

هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ  
بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ إِنْ فِئَايَءَ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ ﴿٤٥﴾

### بذور المعنى

- ❖ ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾: إمَّا هذا القول مما يقوله الله تعالى، أو الملائكة؛ أو هو مقولٌ بالحال لا بالمقال، إذ الأخذ بالنواصي والأقدام مؤذنٌ بالقول للمجرمين: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ...﴾ ولا حاجة أن يقال بالنطق.
- ❖ ﴿يُكَذِّبُ﴾ فعل مضارع يفيد الاستمرار في التكذيب بجهنم في الدنيا، وتكرار ﴿الْمُجْرِمُونَ﴾: ﴿يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ﴾، ﴿يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ ولم يقل تعالى: «يكذبون» بالإضمار؛ فيه تأكيد ومبالغة على التذكير بإجرامهم، وأنهم

أهل لهذا العذاب؛ لأنهم كانوا سببا فيه .

❖ ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آٰنٍ﴾: طاف بين شيء وآخر أي جال وتردد؛ فهم تارة في جهنم، أي في النار المشتعلة؛ وتارة في الحميم، أي في الماء الحار الذي يغلي وهو سائل، أو في حالة الجمر المتبخر وهو غازي. ﴿حَمِيمٍ آٰنٍ﴾ أي بالغ إناه ووقته، أو بلغ غايته ومداه في الحرارة.

❖ كما أن ﴿وَلَمَن حَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ فإن من لم يخفه له ناران: نار جهنم، ونار حميم آن؛ فهما دركتان من العذاب، كما أن الجنتين درجتان من الجزاء يوم الحساب.

❖ وقيل ﴿آٰنٍ﴾ وادٍ من أودية جهنم يجتمع فيه صديد أهل النار.

❖ ﴿فَإِذَا آٰلَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذَّبَانِ﴾: هذا الوصف المخيف ليوم القيامة من نعم الله تعالى التي لا تكذب بها، ونصدقها كأننا نراها رأي العين، بل أكثر جلاء من رأي العين؛ وذلك حتى نتفادى الوقوع في جهنم وفي الحميم، وحتى لا يأتي اليوم الذي يُقال لنا فيه هذا، والعياذ بالله؛ فنكون من أهل الجنتين، مما سيأتي ذكره في الآيات اللاحقة.



## التشغيل والتفعيل

❑ يمرُّ الماء حين يسخَّن بمراحل، هي: مرحلة السيولة (سائل)، ثم مرحلة التبخر (غازي)، ثم يتلاشى الفرق بين السائل والغازي، ولا يعرف هل هو سائل أم غازيٌّ؟ وتبلغ «النقطة الحرجة» للماء عند درجة حرارة 647 كلفن، 374 درجة مئوية. ويسمى فيزيائياً «البريق الحرج». ولا ريب أنَّ احتراق الإنسان وطوافه بين حالة المادة الجامدة، والسائلة، والمتبخرة؛ مما لا يقدر العقل تصوره بمقاييس المواد العلمية.



## من الفكر إلى الفعل

عذاب الله تعالى للمجرمين عدل منه وليس ظلماً؛ فهم الذين جحدوا وكفروا: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

قال عليه السلام: «حوضي مسيرة شهر، ماءه أبيض من اللبن، وريحه أطيب من المسك، وكيزانه كنجوم السماء، من شرب منها فلا يظماً أبدا».

فاللهم اسقنا من حوض نبيك الكريم شربة لا نظماً بعدها أبدا، ونجنا من حميم جهنم وشرابها.



قال الله تعالى:

وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ ۖ فِيهَا فِي آيَةِ الْآءِ رَبِّكُمْ تُكذَّبَانِ ۖ  
 ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ۖ فِي آيَةِ الْآءِ رَبِّكُمْ تُكذَّبَانِ ۖ

### بذور المعنى

- ❖ تمثل هذه الآيات نقطة تحوُّلٍ من وصفٍ لحال الكفار والمجرمين، إلى بيانٍ لحال المؤمنين الذين يقدرّون الله حقَّ قدره، ويخافون مقامه **جَلَّ جَلَالُهُ**.
- ❖ ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ﴾: مقام الله تعالى شأنه وعظمته، أي لمن يعرف هذا المقام ويخافه ويعمل بمقتضى معرفته؛ أو يخاف قيامه بين يدي ربه للحساب، بخاصّة بعد ورود آيات العذاب. أو المراد بالمقام الإِعْظَامُ لله تعالى كما يقال للسلطان: أعزَّ الله مقامك.

- ❖ ﴿جَنَّانٍ﴾ اختلف المفسرون في توجيه مدلول التثنية ﴿جَنَّانٍ﴾، فقال بعضهم: جنة روحية، وجنة جسمية؛ وقال آخرون: جنة للإنس، وأخرى للجن؛ وقال فريق: جنة لأعمال القلب، وجنة لأعمال الجوارح؛ وغير ذلك من الأقوال التي يبدو في بعضها التكلف؛ ولا دليل عليها من أثر صحيح؛ ومعلومٌ أنَّ «الغيب دليله سماعيٌّ لا عقليٌّ» وهذه قاعدة كلية في التوحيد.
- ❖ يكفي دليلاً أنَّ الجنيتين تمثلان مقاماتٍ ودرجاتٍ من يدخلهما، ما ورد في سورة الواقعة، من تقسيم المؤمنين السعداء إلى أصحاب اليمين والمقربين، ووصف درجة كلٍّ منهما في الجنة، ونعيمها، وخيراتها، وملذاتها.
- ❖ ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾: ذواتا في اللغة تثنيةٌ لذاتٍ؛ والأفنان جمع فنٍ وهو الغصن المستقيم من الشجرة، وهو أيضا الغصن النديُّ النضر؛ أو جمع فنٍّ أي نوعٍ؛ فيكون المعنى ذواتا أغصانٍ بديعةٍ؛ أو ذواتا أشكال متنوّعة ومتفنّنة فيها من الثمار والفواكه. وقيل الأفنان الظلالُ، وهو تفسير بـ«اللازم والمعنى»، وليس تفسيرا باللفظ والمبنى؛ إذ الظلال لازم الأفنان.

❏ ﴿فَيَأْيَ آءَالَآ رِبِكَمَا تُكذِبَان﴾: وهل يكفرُ عاقلٌ من إنسٍ أو جانٌّ بهذه النعمة من الله تعالى، أن جازى المطيع الخائف من مقامه بهاتين الجنتين؛ وهو قبل ذلك شوَّقه - نعمةً منه - إليهما في قرآنه الكريم، وفي سورة الرحمن عروس القرآن؟



### التشغيل والتفعيل

❏ هل بين قوله تعالى: ﴿يَأْيَآ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَتَقُوا اللَّهَ ءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ﴾ بمعنى ضعفين بالمشئى؛ وبين ﴿وَلَمَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ بالتثنية كما في هذه الآية؛ هل بينهما وجه تطابقٍ في المعنى؟ وهل الكفلان هما الجنتان؟ وللجواب يبقى القول الفصل في دلالة «الجننتين» محلَّ بحث.

❏ هل تفيد التثنية في هذا السياق الكثرة والوفرة؛ بالرغم من أن المعروف لدى العرب أن السبعة هي الدالة على الوفرة؟

❏ الخوف من الله تعالى ليس خوفَ العبيد الذين لا يُزجرون إلا بالوعيد؛ ولكنه خوفٌ فيه إجلالٌ وهو ذو جلالٍ، وخوف فيه إكرام وهو ذو إكرامٍ،

وإخلاص له وهو الذي أمر عباده بالإخلاص لوجهه الكريم، وهو من نوع خوف الملائكة في قوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ ومعلوم أن الملائكة لا يعذبون؛ فهم بذلك لا يخافون من النار، ولكن بمعرفتهم مقام الله وقدره **جَلَّ جَلَالُهُ**.

❖ عن أبي الدرداء أن النبي ﷺ قرأ: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَانًا﴾ فقلت: «وإن زنى وإن سرق يا رسول الله؟» فقال النبي ﷺ الثانية: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَانًا﴾، فقلت: «وإن زنى وإن سرق؟» فقال الثالثة: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَانًا﴾ فقلت: «وإن زنى وإن سرق؟ قال: «نعم وإن رغم أنف أبي الدرداء»...

❖ والذي يخاف مقام ربه بوصف الآية، حين يزني أو يسرق، أو يقترب إثما ومعصية، يسارع إلى التوبة، ويستعجل طلب رضوان الله تعالى؛ والأسف على من أصرَّ على المعصية إصرارًا، وعلى من استحلَّ المعصية استحلالًا، وعلى من نوى عدم التوبة استهتارًا.



## ٥٠ من الفكر إلى الفعل

٥٠ قال الإمام جعفر الصادق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «من علم أن الله يراه، ويسمع ما يقول، ويعلم ما يعمله من خير أو شر؛ فيحجزه ذلك عن القبيح من الأعمال؛ فذلك الذي خاف ربه».

٥١ حديث النبي عَلَيْهِ السَّلَام الذي فيه «وإن زنى وإن سرق» دعوة للخوف من مقام الله تعالى، وليس تجريئاً على معصية الله سبحانه.

٥٢ للقراءة: «الجَنَّةُ في وصف الجنة» للقطب محمد يوسف اطفيش. «أصول الإيمان، التوحيد ووحدة الأمة» مصطفى وينتن، ومحمد باباعمي.



قال الله تعالى:

فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكذَّبَانِ ﴿٥١﴾  
فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكذَّبَانِ ﴿٥٣﴾

### بذور المعنى

❖ ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾: جريان عين الماء دليل على عدم نضوبه، وكون العينين تجريان أي تسقيان الجنتين على الدوام؛ لتستقيم تلك الأفنان وتثمر من كل الخيرات في كل وقت وأن.

❖ وثمة تلازم بين كون الجنتين ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾، وكونهما ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾، وأن ﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ فكأن الماء توسط الخضرة لفظاً ومعنى، فهو من جهة يجري في البساتين ذات الشجر الفينان، ومن جهة يسقي

الشجر المثمر من كل نوع.

❖ يقول الحسن البصري: عينان، إحداهما التسنيم،

والأخرى السلسيل. لقوله تعالى: ﴿وَمَزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ﴾ (٢٧) عَيْنًا

يَتَرَبُّ بِهَا الْمُقْرَبُونَ﴾، وقوله جلّ من قائل: ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى

سَلْسِيلًا﴾. ومن جميل ما ورد في فهم هذه الآية: «قد

أبهمت العينان، وفيه دلالة على فخامة أمرهما».

❖ ﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾: فيهما من كل فاكهة صنفان،

قال البعض: رطبٌ ويابسٌ، وصنفٌ تعرفه وآخر لا

تعرفه، وغير ذلك من المعاني التي تقاس غالبا

على فاكهة الدنيا؛ ولكن في هذا تضييقا لواسع،

ولا دليل يرجح معنى على آخر.

❖ ذكرت فاكهة الدنيا في بداية السورة: ﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ﴾،

وذكرت فاكهة الجنة في هذه الآية: ﴿فَاكِهَةٌ﴾، ثم

وردت بالجمع «فواكه» في سور أخرى؛ الاسم

واحد، لكنّ المسمّى مختلفٌ: ﴿وَأَتُوا بِهِ مُتَشَبِهًا﴾.

❖ ﴿فِي أَيِّ آءِ آلِهِ رَبِّكُمْ أَتَكْذِبَانِ﴾: بأيّ نعمة من نعم الله يكذب

المجرمون: بما وعد الله من جنات وعيون، وفواكه

كثيرة؟ أو بتشويق الله تعالى للمؤمن حتى يلزم

طاعته، ويحذر معصيته، فيكون أهلا لنيل رضاه،

ودخول جنتيه؟



❏ في حق الأَشقياء المكذبين ذَكَرت الآية أنهم يطوفون بين «نار جهنم» و﴿حَمِيمٍ آتِينَ﴾ أي يتنقلون بينهما؛ ثم في حقَّ السعداء ممن ﴿خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ ذَكَرت الآيات جنتين ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾، ثم جنتين «من دونهما»؛ ولقد أورد الإمام الرازي المناسبة بين المعنيين، وسماها «لطيفة»؛ ثم أضيفُ: وهل في الإمكان أن يكون المؤمن السعيد يتنقل بين الجنات جميعاً: الأوليان، واللتان دونهما؟ وقد لا يكون التقسيم بالضرورة للمرتبة، فهل هذا توجيه حسنٌ؟ للبحث.

❏ من طعم طعام رب العزة وذاق فاكهته من حلالٍ في الدنيا، جوزي بفاكهة الجنة جزاء شكوراً؛ ومن أخذهما من حرام وأخرجهما في حرام، حُرِّم منهما يوم القيامة، يوم الجزاء الأوفى.

❏ أجر سقي الماء في الدنيا عظيم عند الله تعالى، قال رسول الله ﷺ: «من حفر ماءً لم يشرب منه كبَدَّ حَرَّى من جنٍّ وإنس، ولا طائر، إلاَّ أجره الله يوم القيامة»، أمَّا من منع فضل مائه على الناس، فله وزرٌ كبير، وفي الحديث: «ثلاثةٌ لا يكلمهم الله

يوم القيامة، ولا ينظر إليهم» وذكر منهم: «ورجلٌ منع فضل ماءٍ، فيقول الله: اليوم أمتعك فضلي كما منعتَ فضل ما لم تعمل يداك».



## من الفكر إلى الفعل

- ٥٥ قال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «عينان تجريان لمن كانت عيناه تجريان في الدنيا من مخافة الله عَزَّ وَجَلَّ».
- ٥٦ من أحكام الجنة أن فيها: ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.
- ٥٧ قال بعض التابعين: «من كثرت ذنوبه فعليه بسقي الماء» وما دام الأجر في الآخرة من جنس العمل، فإن الله تعالى يسقيه من ماء الجنة.
- ٥٨ بين الماء والعلم وجه شبه؛ فالماء حياة للمبنى، والعلم حياة للمعنى. ومن تم عظم أجر سقي العلم للمتعلّم.



قال الله تعالى:

مُتَكِّينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَّأْنَاهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ

﴿54﴾ فَبِأَيِّ آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ ﴿55﴾

### بذور المعنى

❖ ﴿مُتَكِّينَ﴾: الاتكاء هيئة بين الاضطجاع على الجنب والعود. وقيل: ليس المراد بالاتكاء في الآية معناه الحقيقي، وإنما المراد معناه المجازي، وهو كناية عن تنعم المتكى وترفُّه، وأنه لا تعب له ولا عنت، ولا نصب في طلب العيش.

❖ ﴿عَلَى فُرُشٍ﴾: أي ما يُفرش على الأرض، أو الفراش هو السرير المرتفع عن الأرض. ويقال: فرش الشيء إذا بسطه ومهَّده، وفرش الطائر جناحيه إذا رفرف بهما؛ والشبه واضح معنى وحقيقة بين

صورة الاتكاء على ﴿فَرَشِي﴾ هنا، والاتكاء على ﴿رَفَرِي﴾ في وصف الجنتين المدهامتين.

﴿بَطَائِنَهَا﴾: أي حشوها وما يأتي من جهة الباطن  
 ﴿مَنْ إِسْتَبْرَقِ﴾: من الحرير والديباج الثخين؛ وإذا كانت  
 بطائنها من الحرير فما بالك بظواهرها؟ يقال إنَّ  
 ظواهرها من ﴿سُنْدِسٍ﴾ كما في آية أخرى، في وصف  
 ثياب أهل الجنة: ﴿عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدِسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾.

الاتكاء: جلسة أهل الترف المخدومين؛ لأنها  
 جلسة راحة وعدم احتياج إلى النهوض لتناول  
 شيء، فكلُّ ما يشتهونه يأتيهم ويذلُّ لهم، بشتى  
 صنوف التنعم. ثم إنهم في متكئهم لا يسمعون  
 ﴿لَعْوًا وَلَا تَأْتِيَمًا﴾ ٢٥ ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَمًا سَلَمًا﴾.

﴿وَجَنَى الْجَنَيْنِ دَانٍ﴾: الجنا والجنى هو الثمر الذي نُضج،  
 وبلغ وقتُ قطافه؛ وجنيه ﴿دَانٍ﴾ أي قريبٌ، في  
 تناول الأيدي، يناله المتنعم وهو قائمٌ أو قاعدٌ،  
 أو حتى وهو نائم على فراشه، كما قال تعالى:  
 ﴿فُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾.

﴿فِي أَيِّ آيَةٍ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ﴾: فمن يتنكر لنعمة الاتكاء،  
 ونعمة الفراش، ونعمة الثمر القريب الداني؟ في  
 آن واحد، وفي صورة واحدة، قلَّمَا تجتمع في  
 عادة الناس، وفي فنون التنعم عندهم في الدنيا؛

وإن اجتمعت فلا بدَّ لها من منغص؛ وأكبر منغص أنها حائلةٌ عنك زائلة، وأنت حائلٌ عنها زائل؛ فهي ظرفية؛ ونعمُ الآخرة دائمة خالدة.



### التشغيل والتفعيل

❑ مثل هذه الآيات الكريمات ترهف حسَّ المسلم، وتدفع روحه للاهتمام بالفنِّ والجمال؛ وهو إن نال شيئاً من النعيم في الدنيا، فلا يركن إليه، ولا يعتبره غاية بل هو وسيلة إلى «نعيم مقيم».

❑ جاء النهي في الدنيا عن لبس الحرير، وعن الجلوس عليه، والنوم فوقه، فعن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «نهانا رسول الله ﷺ عن لبس الحرير والديباج، وأن نجلس عليه».

❑ من أَلِفَ الاتكاء والقعود والتنعم في الدنيا تجرَّع غصصَ الذلِّ والهوان في حياته، وبعد مماته، ثم لم يكن أهلاً للمكارم. قال الحطيئة في بيت شعر شهير:

دع المكارم لا ترحل بُغيتها  
واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

## من الفكر إلى الفعل

الدنيا تعب وراحة مجتمعان؛ أما في الآخر فلمؤمن راحة ولا تعب، وللكافر تعبٌ ولا راحة.

المحرّم من الحرير شرعا على الرجال في لباسهم وفرشهم هو الحرير الطبيعي، لا مجرد الحرير الصناعي.

رهافة الحس وتربية الذوق السليم من مقاصد كلام الله تعالى، ومن ثمرات آيات سورة الرحمن في وصف الجنان.

التنعم والاتكاء على الفرش، والقعود عن طلب الرزق، هو مما يُحمد غبه في الآخرة، ويذم في الدنيا؛ حتى لمن كان غنيا، ولمن ورث مالا كثيرا؛ فالعمل والكد عنوان الكرامة في الدنيا، والسعادة في الأخرى.



قال الله تعالى:

فِيهِنَّ قَصْرَتُ الظَّرْفِ لَمْ يَطْمِئِنَّنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٥٦﴾ فَيَأِيءُ الآءِ رَبِّكُمَا  
تُكذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَانَهُنَّ أَلْيَافُوتٌ وَالْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَيَأِيءُ الآءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ ﴿٥٩﴾

### بذور المعنى

- ❖ ﴿فِيهِنَّ قَصْرَتُ الظَّرْفِ﴾: وهنَّ الحورُ العِينُ تقصُرُ أبصارُهُنَّ عن رؤية غير أزواجهنَّ، فهنَّ لا يتعلَّقن بأحد غير الأزواج؛ وهنَّ ثيبات وأبكارٌ ﴿لَمْ يَطْمِئِنَّنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾، والطمث كناية عن النكاح.
- ❖ هنَّ حورٌ عِينٍ، عفيفاتٌ خُلِقا وخُلِقة؛ ولا معنى للتفريق بين الإنسيات والجنِّيَّات في الآخرة؛ فالإنس والجنُّ يوم القيامة لهم نفس الأحكام، وإنما التفريق في الدنيا.

- ❖ ﴿كَانَهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾: في الحسن والجمال مثل الأحجار الكريمة ﴿الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾، وكذا يشبهن ﴿اللُّؤْلُؤُ الْمَكْنُونُ﴾ في الحصن والصيانة وغلاء القيمة. ويبقى هذا التشبيه بديعاً، مما لم يألفه الناس في بلاغتهم؛ وينطوي على جمال وسرّ مكنون.
- ❖ والياقوت: حجرٌ كريم، لونه أحمر، ويختلف بين لونٍ فاتح إلى آخر له حمرة الدم، ومنه نوعٌ يعرف بياقوت «دم الحمام».
- ❖ والياقوت هو أصلب المعادن بعد الماس، ولذا لا يعالج إلا في درجة 3300 درجة مئوية؛ والياقوتة الطبيعية نادرة الوجود؛ أمّا الياقوت الصناعي فهو رخيص الثمن نسبياً؛ ويستخرج من المناجم في إفريقيا، وآسيا، وأستراليا، وأمريكا.
- ❖ وأمّا المرجان، فقد تقدّم بيان معناه العلمي في الآيات السابقة، وله عدة معانٍ كلّها تشير إلى المواد الثمينة والعزيزة والنادرة، المستخرجة من قاع البحار.
- ❖ ﴿فِي أَيِّ آيَةٍ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ﴾: أبنعمة المغفرة والجزاء بالجنة يوم القيامة؟ أم بنعمة الحور العين، بصفاتها المحببة إلى النفس؟ أم بجمالهنّ المشبه بالياقوت

والمرجان، للتقريب؟ أم بنعمة تشويق الله تعالى لكم بما في الجنة لتُعدُّوا لها العُدَّة، فلا تُحرموا نعيمها الدائم المقيم؟



## التشغيل والتفعيل

❏ القول في الأزواج يوم القيامة: هل جميع من تزوّجها رجلٌ في الدنيا تكون زوجته في الآخرة؟ وهل مطلّقة الرجل تكون زوجته يوم القيامة؟ وهل أزواج الإنس يختلطن مع أزواج الجنّ؟ وكثير من هذه الأحكام مما لم يرد فيه نصٌّ صريحٌ صحيحٌ؛ لا فائدة من ورائه، ولا داعي للخوض فيه. وإنما «الغيب محلُّ إخبار، لا مجال إعمال للرأي والخيال والجدل مانع عن العمل».

❏ وردت في صفات حور العين جملةٌ من الآثار التي لم تصحَّ عن الرسول ﷺ، وبعضها ينسب إلى الصحابة الكرام عَلَيْهِمُ السَّلَامُ؛ ولا يطمئنُّ القلب إليها، فهي تفتح أبوابا للتشكيك، ولا تنفع المسلم في شيء؛ فصارانا الاستغناء بما ورد من آيات بينات، ومن أحاديث صحيحة واضحات، مما هو «قطعيُّ الثبوت، قطعيُّ

الدلالة» .

تجاوزَ مجال أهمية المعادن الثمينة الزينة والجمال، وصارت أصلا للصناعات الدقيقة، مثل صناعة الترنزيستورات، وآلات الحفر، وأجهزة الراديو، والكمبيوترات، والأدوية النادرة الناجعة... وغيرها كثير.



## ٥٠ من الفكر إلى الفعل

٥٠ كلُّ ما ذكر من خيرات ونعم، هو جزاء من خاف مقام ربه، وعبدَ الله تعالى كأنه يراه، وهو موقنٌ أنّ الله تعالى يراه، فأحسن في القول والفعل.

٥١ للأسف، تخلف المسلمون في استخراج الياقوت، وفي تصنيعه، وفي الاتجار به؛ رغم كونه من مصادر الغنى للأمم والشركات والأفراد.

٥٢ صاغ العلماء قاعدة في الطب هي: «لكل داء حجرٌ كريم يداوى به»؛ والتداوي بالأحجار الكريمة مما يستعجل الاهتمام به في مجالات الطب البديل الجادة، وليحرص المسلم على التحكم في هذه العلوم.

٥٣ جُبل الإنسان على حبِّ الجمال، وعلى التعلق به، وعلى عدم الصبر عنه؛ ولذا من قصر عينيه عن الحرام، وتمتع في الدنيا داخل دائرة الحلال؛ جازاه الله يوم القيامة بالحوار العين، وكذا المرأة يجازيها سبحانه بزواج تقرُّ بها عينها.



قال الله تعالى:

هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴿60﴾  
فَبِأَيِّ آيَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿61﴾

### بذور المعنى

﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴾: هو استفهامٌ إنكاريٌّ، في مقام التعليل لما ذكر الله تعالى من إحسانه لعباده المؤمنين بالجنّتين، اللتين فيهما كلُّ هذه الخيرات. ويكون الجزاء من جنس العمل؛ ذلك أنّ المؤمن لما أحسن أحسن الله تعالى إليه؛ وتداركه برحمته ورحمانيته، ومغفرته وعفوه، فيما قصر فيه وفيما قصر عنه؛ ذلك أنّ العمل وحده لا يدخل الجنة.

❖ ثم إنَّ الله تعالى بما أنه أحسنَ إلى خلقه وعباده، وإلى الجنِّ والإنس؛ بجلاله وكرمه سبحانه؛ كان لزاما عليهم جميعاً أن يحسنوا إليه سبحانه، بأن يعبدوه كما أمر، ويقدروه حقَّ قدره، وأن لا يكفروا به، ولا يكذبوا بآلائه.

❖ يقول تعالى وعدا منه: ﴿الَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾؛ فهو تعالى يجزي بالقليل الكثير، وهو الجواد العزيز الكريم.

❖ هذه قاعدة كلية في المعاملات بين الناس: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾؛ بحيث لا يساء إلى من أحسن إليك، ولا يجازى على الإحسان إلا بإحسانٍ مثله أو بأكثر منه، وتمثلها خُلُقًا في العلاقة بين المسلمين، وبين الناس، بديلٌ عن الصورة الإدراكية المستمدَّة من نص ضعيف هو: «اتَّقَ شَرَّ مَنْ أَحْسَنَتْ إِلَيْهِ». ولقد يسيء إليك بعضٌ من أحسنت إليه، أو كثيرهم، لكنَّ فعلهم لا يغيِّر من الحق شيئاً؛ ذلك أنَّ الإحسان الخالص ما كان لوجه الله تعالى، لا لأحد غيره.

❖ ﴿فَيَأْتِيَ آءَاءَ رَبِّكَمَا تَكْذِبَانِ﴾: هل يكفر إنسيٌّ أو جنِّيُّ نعمةَ إحسان الله تعالى إليه مقابل إحسانه هو، والحال أنَّ إحسان الله تعالى أصل وهو مطلقٌ، وإحسان

العبد إنسيًا كان أم جنيًا فرغٌ وهو ناقصٌ وتابعٌ؟



## التشغيل والتفعيل

❏ في الحديث عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴾ فقال: هل تدرّون ما قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «ما جزاء من أنعمتُ عليه بالتوحيد إلا الجنة». فيكون الإحسان الأول هو التوحيد، وهو من العبد؛ والثاني هو الجنة، وهو من الله جَلَّ جَلَالُهُ.

❏ من تمام إحسان الإنسان: الإيمان بالله تعالى، والعمل الصالح، وخوف مقامه سبحانه، والإحسان في كلِّ شيء بناء على ذلك. وقد ورد تعريفه في جوامع الكلم لرسول الله ﷺ: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».



## • من الفكر إلى الفعل •

• علمنا رسول الله ﷺ أن نقول: «اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا، ومن عذاب الآخرة».

• وفي رواية: «من كان ذلك دعاءه مات قبل أن يصيبه البلاء».

• ونحن نعاني كثرة الفتن، وشدة البلاء، يجمل بنا أن لا يغادر هذا الدعاء قلوبنا وألسنتنا.

• نص الآية: ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴾ قاعدة كلية في التعامل بين الناس؛ فمن أحسن إليك وجب ان تُحسن إليه؛ ولكن من أساء فلا يوجب ذلك ردَّ الإساءة بمثلها.

• الجنة من الله تعالى لعباده المؤمنين تفضلُّ منه وليست استحقاقاً منهم، لحديث: «لن يدخل أحد الجنة بعمله»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمّدني الله برحمة منه وفضل».



قال الله تعالى:

وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ ﴿٦٣﴾  
 مُدْهَامَتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ ﴿٦٥﴾

### بذور المعنى

- ❖ ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾: اختلف المفسرون هل ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا﴾ تفيدُ أنَّ هاتين الجنتين دونَ الجنتين السابقتين؟ وهو رأي أغلبهم. أم أنَّ ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا﴾ معناه بالقرب منهما؟ وذهب البعض إلى أنَّ هاتين الجنتين أحسنُ مقاما من السابقتين.
- ❖ وقد فسّرت الجنتان الأوليان أنهما للسابقين المقرّبين، والتي من دونهما أنها لأصحاب اليمين؛ كما في سورة الواقعة بعد هذه السورة.

❖ ﴿مُدَاهَاتَانِ﴾ الدَّهْمَةُ السَّوَادُ عَمُومًا، وَهُوَ فِي الْخَضِرَةِ وَالزَّرْعِ اشْتِدَادُ الْخَضِرَةِ مِنَ الرَّيِّ حَتَّى تَمِيلَ إِلَى السَّوَادِ؛ وَيُقَالُ: حَدِيقَةٌ مُدَاهِمَةٌ. وَهُوَ كُنَايَةٌ عَنْ ظِلِّهَا الْوَارِفِ الظَّلِيلِ، وَيَقَابِلُهُ فِي الْجَنَّتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾. فَالْأَفْنَانُ مَقْدَمَةٌ لِلدَّهْمَةِ وَشَرْطٌ لَهَا، وَالدَّهْمَةُ نَتِيجَةٌ لِلْأَفْنَانِ وَثَمْرَةٌ لَهَا.

❖ ﴿فِي أَيِّ آيَةٍ رَبِّكُمْ كَذَبَانِ﴾: هَلْ بِالْجَنَّةِ الَّتِي وُعدتموها؟ وَبَعَلُّوْهُم مَقَامِكُمْ عِنْدَهُ، حَتَّى يَعدَّ لَكُمْ كُلَّ هَذِهِ الْجَنَاتِ، عَلَى مَرَاتِبٍ، حَسَبِ الْعَمَلِ؟ وَهَلْ تَكْفُرُونَ بِمَا وَرَدَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَفِي غَيْرِهَا حَوْلَ الْجَنَّةِ وَالنَّعِيمِ؟ وَهَلْ هَذَا الْوَصْفُ لِمَجْرَدِ التَّفَكُّهِ وَالقِرَاءَةِ؟ أَلَيْسَ حَقِيقَةً تُتلى، وَحَالًا سَتَرُونَهُ رَأْيَ الْعَيْنِ؟



## التشغيل والتفعيل

❖ لَا تُسَعِفْنَا النُّصُوصَ فِي تَحْدِيدِ أَيِّ الْجَنَّتَيْنِ أَفْضَلَ وَأَحْسَنَ؛ ذَلِكَ أَنَّ الْأَوْصَافَ تَتَقَارَبُ، وَتَفُوقُ تَصَوُّرَاتِنَا الْمَادِيَةَ الْحَسِيَّةَ الْبَسِيطَةَ؛ وَلِذَا نُوْمن وَنَسَلِّمُ وَنَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَهْبِنَا أَحْسَنَ جَنَاتِهِ، وَيُنْزِلْنَا الْفَرْدُوسَ الْأَعْلَى. وَقَدْ اجْتَهَدَ الْبَعْضُ فِي الْمَقَابَلَةِ بَيْنَهُمَا، وَفِي التَّفْضِيلِ، وَلَهُ أَجْرُهُ فِي ذَلِكَ.

## من الفكر إلى الفعل

التفنن في البستنة والزراعة، والتفوق فيهما، مما أمر به المسلمون؛ حتى لا يكونوا عالة وتبعاً لغيرهم.

ثمة تفاوت في درجات الجنة، تبعاً لتفاوت العباد في درجات أعمالهم.

قال الرسول ﷺ: «إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنها أعلى الجنة، ومنها تفجر أنهار الجنة».



قال الله تعالى:

فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكذَّبَانِ ﴿٦٧﴾  
فِيهِمَا فَالِكِهَةٌ وَنُحْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكذَّبَانِ ﴿٦٩﴾

### بذور المعنى

- ❑ ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّخَتَانِ﴾: نَضَّخ صيغة مبالغة من نَضَخَ: غزيرٌ، شديدُ الفوران؛ واختلف المفسرون هل الجريان في «عينان تجريان» أفضل أم في «عينان نَضَّخَتَانِ» في هاتين الجنتين، ولا دليل على الترجيح.
- ❑ النضخ في اللغة أكثر من النضح؛ لأنَّ النضح هو الرُّشُّ بماء قليل، أمَّا النضخ فالفوران بماء كثير غزير.
- ❑ أنهار الجنة تنبع من الفردوس الأعلى كما يُفهم

من حديث رسول الله ﷺ: «إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس؛ فإنها أعلى الجنة، ومنها تفجر أنهار الجنة».

❖ ﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الرِّمَاطِ﴾: جمعت الفاكهة مع النخل في الآيات الأولى من السورة، مما تنبت الأرض ﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الرِّمَاطِ﴾، وزيد في تلك ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾، وفي هذه زيد ﴿وَرُمَّانٌ﴾.

❖ ورغم أن الرمان من الفاكهة إلا أن الله تعالى خصه بالذكر؛ قيل لأن فيه خاصية الدواء إضافة إلى خاصية الفاكهة؛ أمّا تخصيص تمر النخل فلأنه فاكهة وطعام متقوّم به؛ والجمع بين الآيات يبين أفضلية التمر على غيره من الفواكه.

❖ ﴿فِي آيَاتِنَا لَعَلَّكُمْ تَتَذَكَّرُونَ﴾: جميع هذه النعم، من الفاكهة، ومن التمر، ومن الرمان ومن غيرها؛ مما رزقنا مثله في الدنيا، وتذوقناه مستساغاً؛ ولكن في الآخرة هو من نوع آخر، نعمة من الله تعالى وفضلاً؛ فكيف نكفر هذه النعم على جلالها وعظمتها؟.



## التشغيل والتفعيل

❖ هل في ذكر أنواع الفواكه والتمر إشارات إلى ما

- ينبغي أن نعتني به في زراعتنا واقتصادنا؟
- ❖ وهل الفواكه التي ذكرت في القرآن الكريم لها خاصية أفضل من خاصية الفواكه التي لم تُذكر؟
- ❖ ما هو ضابط الحديث عن «الإعجاز العلمي» بالغوص في خصائص ما ورد في القرآن من الفواكه والخضر، على حساب غيره مما لم يذكر؟
- ❖ أم الذكر للتمثيل حسب بيئة العرب الذين أنزل عليهم القرآن، وكلُّ مذكور رمزٌ لما لا حصر له من غير المذكور في كلِّ شيء؛ ولو نزل القرآن في بيئة أخرى لكانت الأمثلة من الحيوانات والثمار والفواكه والخضراوات غير هذه؟



## ❖ من الفكر إلى الفعل

❖ الاعتناء بالزراعة من أشكال شكر نعم الله تعالى علينا؛ وبخاصة حين تكون حاجة المسلمين إلى غيرهم فيها شديدة، وما يتبع ذلك من تبعية حضارية لا تخفى اليوم على أحد.

❖ ينبغي التثبت حين الخوض في «الإعجاز العلمي» أن لا نتصر لشيء ليس لنا فيه دليل ولا مستند صحيح؛ ثم حين يتعين الخطأ فيه، يحتمل القرآن الكريم ما لا يحتمل.

❖ في الصحيحين عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وهي مثل المسلم، حدثوني ما هي؟ فوقع الناس في شجر البادية، ووقع في نفسي (أي نفس ابن عمر) أنها النخلة، قال عبدالله: فاستحييت، فقالوا: يا رسول الله أخبرنا بها، فقال عليه الصلاة والسلام: هي النخلة، قال عبد الله: فحدثت أباي بما وقع في نفسي، فقال: لأن تكون قلتها أحب إلي من أن يكون لي كذا وكذا».



قال الله تعالى:

فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حَسَنَاتٌ ﴿٧٠﴾ فَيَأْتِيءَ الْآءَ رِيكْمَاتٌ كَذِبَانَ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴿٧٢﴾  
 فَيَأْتِيءَ الْآءَ رِيكْمَاتٌ كَذِبَانَ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِئِنَّ لَهُنَّ أُنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جِآنٌ ﴿٧٤﴾ فَيَأْتِيءَ الْآءَ رِيكْمَاتٌ كَذِبَانَ ﴿٧٥﴾

### بذور المعنى

- ❑ ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حَسَنَاتٌ﴾: خيرات جمع خيرة وهي صفة مشبهة، أي حورٌ عِينٌ خيراتٌ؛ وهنَّ حسانٌ خلقتنَّ وخلقتنَّ؛ ولكنَّ الأولى أن يكون المعنى خيرات خلقتنَّ، حسان خلقتنَّ وخلقتنَّ؛ جمعا بين الجلال والجمال.
- ❑ ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾: كأنَّ حورا وصفنَّ، وهو بدلٌ من خيرات حساننَّ، وليس موصوفاننَّ؛ والمفرد حوراء، بمعنى شدة البياض في بياض العين، مع شدة السواد في سوادها.

❖ والمقصورة هي التي قُصِرَ وجودها إلا في خدرها، لا تغادره لغيره. وهذا الوصف يفسره قوله تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَلِ اللَّوْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ أي قيمةً وصَوْنًا. ويقابله في الحور العين اللتين في الجنتين الأوليين: ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ تقصر أبصارهنَّ عن التطلع إلى غير أزواجهنَّ.

❖ الخيمة جمعها «خيام» وهي بيت المرتجل، وهو غالبا من وبر أو خشب، له عيدان ترفعه؛ والخيمة ما يسهل وضعه ويسهل نزعه قصد الارتحال؛ في مقابل البيت الذي هو للقاء، وليس يسيرا قلعه، بل قد يستحيل.

❖ واعتبار المادة التي تصنع بها الخيمة لا معنى له؛ فهو يتغير حسب تطور الصناعات؛ والخيمة اليوم - مثلا - تصنع من أنواع القماش الخشينة، أو من مواد جديدة مستحدثة.

❖ ﴿لَمْ يَطْمِئِنَّ إِسْرَ قِبَالَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾: هي صفة جامعة بين الحور العين في الجنتين السابقتين، والحور العين في هاتين الجنتين؛ أي أنهن لم يُنكحن من قبل؛ فهنَّ أبكار وعذارى.

❖ ﴿فِي أَيِّ آءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾: لا بنعمة من نعمك ربنا نكذب

وإننا لنخلع من يكذبك، ونسألك أن لا تحرمننا رضاك، وجنتك، ونعيمك.



## التشغيل والتفعيل

❏ مكث الحور العين في خيمتها وفي خدرها، هو من أحكام الآخرة، ولا معنى للاحتكام إلى معاني الدنيا؛ ولا ريب أن الخيمة في الجنة أوسع وأرحب من الدنيا كلها.

❏ المراد بالخيام معناها الطبيعي المألوف عند العرب؛ لإضفاء مسحة من الجمال والروعة البدوية، التي يشتيها كل الناس؛ وهي متعة لا تتوفر غالبا في البيوت الحضرية. ومن طبيعة الإنسان أنه يحب من فنون اللذة التغيير والتجديد. وهذا لا ينفي وجود البيوت، والقصور، وما يتصوره الإنسان في سياقاته الحضارية الأخرى، قال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا ۝ ﴾ .

❏ لعل ﴿ مَقْصُورَاتٌ ﴾ منحوت من معنى «القصر» أي البيت الفخم الواسع؛ للبحث والتحقيق.

## من الفكر إلى الفعل

عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «لروحة في سبيل الله أو غدوة خير من الدنيا وما فيها، ولقاب قوس أحدكم من الجنة أو موضع قيد خير من الدنيا وما فيها، ولو أن امرأة من أهل الجنة اطلعت إلى أهل الأرض لأضاءت ما بينهما ولملأته ريحا، ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها».

للمطالعة كتاب «الجنة والنار» لعمر سليمان الأشقر.



قال الله تعالى:

مُتَّكِّينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾  
فِي أَيِّ آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾

### بذور المعنى

- ❖ ﴿مُتَّكِّينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾: للرفرف معاني عديدة، منها: ضربٌ من البُسُط، ونوعٌ من الوسائد، وكلُّ ثوب عريض هو رفرِف؛ والرفرف أطراف البُسُط والثياب، وثيابٌ خضُرٌ تُتخذ منها المجالس. والرفرف: ما يدلُّ من الأسرَّة من غالي الثياب؛ ورَفْرَف الطير جناحيه حركهما.
- ❖ إذن فصفة الحركة، والسعة، والجمال، جامعة لمعنى الرفرف.

❖ وقد يكون الرفرف هو ما يعرف اليوم «بالدانتيل» (**Dentelle**)، أو «الشبيك» وهو: قماش مخرَّم دون إطار أو حدود، وعادة يكون من خيوط الحرير أو الكتان. والرفرف من الفسطاط والقميص والدرع ونحوها: أسفله وذيلُه.

❖ ﴿وَعَبْقَرِيَّ حَسَانٍ﴾: العبقريُّ منسوب إلى «عقبر» وفي الأساطير العربية القديمة، هو بلدُ الجنِّ؛ فينسب إليه كلُّ أمر عجيب؛ والعبقريُّ فراشٌ جميلٌ بالغ الحسن، أو هو ديباجٌ غليظٌ، مما يُتكا عليه عادةً؛ وقد قيل في شأن سيدنا عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «لم أرَ عبقرِيًّا يفري فرِيَه».

❖ ﴿فِي أَيِّ آيَةٍ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ﴾: اللهمَّ أرحنا من تعب الدنيا ووصبها، بالاتكاء على الرفرف الخضر، والعبقري الحسان؛ ولا تجعلنا ممن يكذب بنعمك وبآلائك.



## التشغيل والتفعيل

❖ وردت في فرش أهل الجنة الكثيرُ من الأوصاف، مثل: الأرائك، السرر، والنمارق، والزرابي... والغالب عليها صفة الجمع، دلالة على الكثرة والسعة، وعلى منتهى الراحة والتمتع.

## • من الفكر إلى الفعل

• قال رسول الله ﷺ: «إنَّ في الجنة مائة درجة، أعدّها الله للمجاهدين في سبيله، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس».

• روي في الصحاح أنَّ أبا بكر دخل على رسول الله ﷺ ليكلمه في حاجة، وعائشة تصلي، فقال رسول الله ﷺ: يا عائشة: عليك بالجوامع والكوامل، قلني: اللهم إني أسألك من الخير كله، عاجله وآجله، ما علمت منه وما لم أعلم، وأعوذ بك من الشر كله، عاجله وآجله، ما علمت منه وما لم أعلم، اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل، اللهم إني أسألك مما سألك منه محمد ﷺ، وأعوذ بك مما استعاذ منه محمد ﷺ، اللهم ما قضيت لي من قضاء فاجعل عاقبته لي رشداً.



قال الله تعالى:

تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾

قال العنبري

### بذور المعنى

- ❖ ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ﴾: تقدّس وتنزهه؛ وتبارك الرجل طلبَ البركة وفاز بها؛ وتبارك الله، وتبارك ربك، وتبارك اسم ربك.
- ❖ أثبت البركة للاسم نفسه ﴿تَبَارَكَ اسْمُ﴾، فمجرد الاسم فيه بركة ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ﴾؛ وتبارك لا يشتقُّ منها؛ وإذا تبارك الاسم فالمسمّى من باب أولى؛ هو مبارك وبركة.
- ❖ والاسم الذي تبارك هو ﴿الرَّحْمَنُ﴾ الذي استهلّت به

السورة، وكان حاضرا في كلِّ مشهد من مشاهدها،  
وكأنَّ آخرها عَوْدٌ على بدءٍ، قال تعالى: ﴿ نَبِّزَكَ أَسْمُ  
رَبِّكَ ﴾ .

❖ ﴿ ذِي الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ ﴾: وفي الآية التي بين أحوال الدنيا  
وأحوال يوم القيامة من هذه السورة: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا  
فَإِنَّ ۞ وَبَقِيَ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ ﴾؛ ثم تُختم السورة،  
بعد بيان حال أهل الشقاء، وحال الفريقين من  
أهل السعادة؛ تختتم السورة بقوله تعالى: ﴿ نَبِّزَكَ  
أَسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ ﴾، أي صاحبِ الهيبة والعظمة،  
والقوة والبطش، والجبروت والكبرياء؛ ثم هو  
صاحب فضل ورحمة، وعدل وإحسان.

❖ وبين الوصفين «ذي الجلال»، و«ذي الإكرام» تكتمل  
صفات الجلال وصفات الجمال الواجبة في حقه  
جَلَّ جَلَالُهُ، وتعالى اسمه وتبارك.

❖ جاءت نهاية السورة مؤكدة لصفات الله تعالى، قصد  
أن تتعمَّق في نفس الإنس والجانَّ معاني النعمة  
الربانية، والعظمة الإلهية؛ ذلك أنَّ التوحيد هو  
المبدأ والمنتهى، وهو الغاية من الوجود كله،  
والغاية من نزول القرآن جميعه، وهو مرتبطٌ مسير

الثقلين في الدنيا، ورباط مصيرهما في الآخرة، أي حين: «الواقعة»... من هنا تبدأ سورة الواقعة.



## التشغيل والتفعيل

❏ «حين يتجلَّى الحقُّ سبحانه عليك بصفات الجلال ترى ما يخيفك ويُرهبك، وحين يتجلَّى عليك بصفات الجمال، ترى ما يُريحك ويسعدك ويسرُّك»، ومن رحمة الله تعالى أنه لا يتجلى بصفة واحدة، ولكن حسب حال العبد، وحسب قربه وبُعدِهِ من الله تعالى.

❏ يقول الشيخ الشعراوي: «سألني أحد الإخوان: إنني أجد نفسي في المدينة غير ما أجدها في مكَّة. قلنا: لأنَّ الله تعالى يتجلى في مكَّة بصفات الجلال، وفي المدينة بصفات الجمال». وهذا الإحساس بالتباين بين حال مكة وحال المدينة، يكاد يكون عامًّا لكلِّ من حجَّ أو اعتمر؛ فسبحان ذي الجلال والإكرام.

❏ هو سبحانه تعالى خلق الخلق، ونظَّم النظام؛ لأنه بديعٌ خالقٌ مبدئٌ معيد. فأتقن الفعل؛ لأنه عليم

حكيم. وجازى أهل الطاعة بالخير؛ لأنه ودود  
شكور غفور رحيم. وأهل الفسق بالشر؛ لأنه منتقم  
شديد العقاب.



## ❦ من الفكر إلى الفعل

- ❦ افتتحت السورة باسمه تعالى ﴿الرَّحْمَنُ﴾، واختتمت بـ ﴿بِزَكَرَاتِهِ رَبِّكَ﴾ وبذلك يظهر المراد باسمه المتبارك أنه «الرحمن». وبهذا يتناسب استهلال السورة مع اختتامها. ويجمل بنا أن نديم الدعاء به.
- ❦ في الحديث الشريف: «أَلِظُوا بـ"يا ذا الجلال والإكرام"»، أي الزموا الدعاء بها، وأكثروا منها، وداوموا. وبذلك ننال خير ما في جاء السورة من جزاء، ويحفظنا الله تعالى مما ورد فيها من عقاب.
- ❦ ليس المقصود مجرد تلاوة سورة الرحمن، ولكن بعد تمام تلاوتها وفهمها، وجب العمل بها...
- ❦ اللهم ارزقنا العلم والعمل، ورضاك ورضوانك... يا رحمن، يا ذا الجلال والإكرام.







